الأسس الأخلاقية
لبناء مجتمع إسلامي راشد

في فكر الشهيد

إعـداد

د. أحمد سعيد صالح عزام

عضو هيئة التدريس

في جامعة القدس المفتوحة - جنين

الطبعة الأولى

1442هـ - 2021م

بسم الله الرحمن الرحيم

البرنامج الوطني لدار الكتب الفلسطينية
بطاقة فهرسة أثناء النشر
وزارة الثقافة – الإدارة العامة للمكتبات والمخطوطات

سعيد صالح عزام، أحمد
الأسس الأخلاقية لبناء مجتمع إسلامي راشد في فكر الشهيد عبد الله عزام.
أحمد سعيد صالح عزام. – غزة – فلسطين، ديسمبر 2020م.
(208) ص، 21*14.8 سـم
رقم الإيداع: 2020/1456

جميع حقوق المؤلف محفوظة لدى دار الكتب الوطنية والمكتبات بوزارة الثقافة
رقم الإيداع: 2020/1456م، بتاريخ 13 جمادى الأول 1442 هـ- 24 ديسمبر 2020م.

تصميم وإخراج
م. أحمد مصطفى أبو عجوة

المحتويات

- المقدمة.
- الأصل الأول: البناء العقدي من النبع الصافي.
- الأصل الثاني: التوجيهات الإسلامية - في الجانب الخلقي - والأسس التي ترتكز على البناء العقدي.

  ويمكن حصرها في ثمانية عشر أساساً من الأسس التربوية الأخلاقية.
- هذا الكتاب.
- فهرس الموضوعات.

مُقَدِّمَة

الحمد لله والصلاة والسلام على محمد رسول الله، وبعد:

سنين طويلة طويت من ريعان عمري وشبابي، وأنا أتابع كل ما خطه الشهيد عزام[1] بقلمه، أو فاض على لسانه في خطبه ودروسه ومحاضراته ... أتابع وأقرأ وأتصفح كتبه وكلماته وعباراته، في صحبة واعية لهذه المراجع التي يجهلها كثيراً من الناس، بل لا يعرفها كثير ممن عرف الشيخ وعاش معه في بعض المواطن..!!

عشت في صحبة هذا التراث، حتى لا يكاد يفوتني شيء مما كتبه وما قاله من المعاني التي طفحت بها هذه المراجع الثرية.

وتلك – بلا ريب– نعمة عظيمة أحس بها في نفسي، وأعتبرها من أعظم المنن التي منَّ الله بها علي، ففتحت لي أبواباً - من الفهم في هذا الدين، وسعة في الأفق، ودراية في الطريق، وإدراكاً للواقع- ما عرفتها من قبل، إلا ما عرفته من كتابات عملاق الفكر الإسلامي (سيد قطب). ولا غرابة أن يلتقي العملاقان في الفهم والتوجه والفكر والمصير...!!

والحق الذي -لا أمتري فيه- أن لكتابات هذين العملاقين فضلاً كبيراً عليّ بعد الله سبحانه، في فتح بصيرتي على هذا الدين العظيم، دون أن أنسى بقية العلماء الأفاضل الذين أفدت منهم كثيراً، وتربيت على أيديهم وكتبهم -أيام دراستي في الجامعات -

1) اسم الشيخ الشهيد كاملاً: عبد الله يوسف مصطفى يوسف محمد عزام.

حيث أدركت – من خلال كلماتهم بعد تعمق فيها وتفكير طويل- أن هذا الدين هو الملجأ الوحيد لكل من أبصر وأراد أن يسعد في الدارين ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ﴾[1].

وهذا التراث الضخم الذي خلفه الشهيد د. عبد الله عزام، ما كان ليرى النور ويكتب له الخلود لولا الله سبحانه، ثم الجهود الضخمة والمضنية التي بذلها تلاميذه من بعده، وعلى رأسهم أخي الحبيب (أبو عادل) -حفظه الله ورعاه-، الذي ضحى بالكثير من أجل جمع كل ما كتب الشهيد وقاله في خطبه ودروسه. أسأل الله أن يجزيه خير الجزاء، هو ومن تعب معه في هذا الطريق.

وما هذا الكتاب إلا ثمرة من ثمرات جهودهم، وكان الموضوع -الذي اختير له- من المواضيع التي يفتقر إليها الناس جميعاً، وخاصة أبناء الحركات الإسلامية، الذين ينشدون قيام مجتمع إسلامي على منهج النبوة، والذي لن يتحقق أبداً إلا بعد أن نتمثل تلك الأخلاق العالية التي يقوم عليها هذا المجتمع المنشود، وقد اخترت له عنواناً يتناسب مع مادته التربوية الأصيلة في هذا الدين، وهو:

(الأسس الأخلاقية لبناء مجتمع إسلامي راشد في فكر الشهيد عبد الله عزام)

1) (سورة الأنعام: 104).

هذا وقد اتبعت في إعداد هذا الكتاب منهجاً أختصره بما يلي:

أولاً: حرصت كل الحرص -في هذا الكتاب- أن يعبر عن آراء الشهيد وفكره ومنهجه في علاج الأمراض الأخلاقية التي يعاني منها المسلمون اليوم، ولم أدخل فيه أي معنى جديد خارج عما حملته كتابات الشهيد وكلماته، باستثناء توضيح بعض المعاني والعبارات.

ثانياً: حاولت – قدر الممكن – أن أحافظ على عبارات الشهيد وأسلوبه الخاص، إلا في بعض المواطن التي اضطررت فيها إلى إعادة صياغة العبارات من جديد، مع المحافظة على المعنى.

ثالثاً: ألحقت المراجع في هامش كل أساس من الأسس التي تناولها هذا الكتاب، دون الإشارة إلى الصفحات، -باستثناء الموسوعة لضخامتها -، وذلك لكثرة تكرار المعاني والقصص والأفكار، وفي مواطن كثيرة جداً، مما يصعب-بل يستحيل- إحالة كل فقرة أو معنى إلى موطنه من المراجع، فاكتفيت بذكر المرجع مجرداً.

رابعاً: إعداد هذا الكتاب وصياغته جاءت على طريقتين:

أ- كنت إذا وجدت المادة المطلوبة في موطن بشكل كامل أو شبه كامل، نقلتها بعبارات الشيخ وأسلوبه كما هي، دون تغيير أو تدخل في صياغتها، وهذا يشكل معظم الكتاب.

ب- أما إذا وجدت المعاني المنشودة مفرقة وموزعة في عدة كتب ومواطن متفرقة، كنت أقرأها حتى أهضم معانيها جيداً، ثم أعيد صياغتها بعبارات جديدة حتى تتناسق مع الفقرات والجمل السابقة واللاحقة، وذلك مع الحفاظ على المعاني

والأفكار والتوجيهات التربوية التي كان يريد الشهيد إيصالها للآخرين -قدر المستطاع-.

ج- لا أدعي بأنني استوعبت في هذا الكتاب كل ما في تراث الشيخ من الأسس الأخلاقية، بل إنني على يقين أن هناك أسساً أخرى غفلت عنها، لعل غيري يفطن إليها.

د- بالنسبة للأحاديث الشريفة، قمت بتحقيقها، وإسنادها إلى مراجعها الأصلية، وأحياناً نقلتها نصاً كاملاً من المصدر، لتعم الفائدة منها، ولأن بعضها وقع فيها أخطاء، أو ذكرت ناقصة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مُعد الكتاب

د. أحمد سعيد صالح عزام

عضو هيئة التدريس في

جامعة القدس المفتوحة – جنين

10-12-2020م

بنظرة واحدة للمنظومة الأخلاقية في الإسلام -بشكل عام-، وما يتفرع منها من توجيهات -تضبط أخلاقيات الفرد والمجتمع- نجد أن هذه المنظومة الأخلاقية ترجع في نهاية المطاف إلى أصلين منبثقين من كتاب الله وسنة رسوله الكريم، وهما:

الأصل الأول:

البناء العقدي من النبع الصافي -كأصل للمنظومة الأخلاقية-.

الأصل الثاني:

التوجيهات الإسلامية – في الجانب الخلقي-، والأسس التي ترتكز على البناء العقدي. ويمكن حصرها في ثمانية عشر أساساً، من الأسس التربوية.

الأصل الأول [1]

البناء العقدي من النبع الصافي كأصل للمنظومة الأخلاقية

---

1) المراجع:

1- من كتاب (العقيدة وأثرها في بناء الجيل) وقد رجع الشهيد إلى مجموعة من الكتب والمراجع الفكرية الإسلامية -في هذا الموضوع-، أهمها:

أ- أسباب سعادة المسلمين وشقاؤهم، للكاندهلوي.

ب-ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي.

ت-التطور والثبات في حياة البشرية، لمحمد قطب.

ث-الإسلام ومشكلات الحضارة، سيد قطب.

ج- كتاب الحجاب، للمودودي.

ح- الإسلام وأوضاعنا القانونية، عبد القادر عودة.

خ- في ظلال القرآن، سيد قطب.

2- التربية الجهادية والبناء، ج1.

3- سعادة البشرية في ظل المنهج الرباني. موسوعة (الذخائر العظام)، ج782/1.

4- الإسلام ومستقبل البشرية. موسوعة الذخائر العظام، ج1/ 755.

العقيدة

هي الأساس المكين الذي ترتكز عليه فروع هذا الدين كله، ومن العبث محاولة إشادة بناء ضخم بلا أساس، وبالتالي فإن الأخلاق ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالعقيدة التي يحملها كل فرد، فهي التي تضبط جميع تصرفاته، وخاصة الأخلاق منها.

وإذا نظرنا إلى السلوك الذي تنتهجه البشرية برمتها، نجد أن جميع الانحرافات التي تعانيها البشرية في سلوكها -أفراداً وجماعات- راجعة بكليتها إلى الانحراف في التصور العقدي، فالناس في هذه الأيام بحاجة ضرورية إلى بناء العقيدة من جديد، وإلى تصحيح التصور الاعتقادي.

ولو أخذنا جانباً من جوانب العقيدة الإسلامية -كالإيمان باليوم الآخر مثلاً- نجد بأنه الضابط الوثيق الذي يحرس الأخلاق، والحارس الأمين الذي يضمن تنفيذ أحكام هذا الدين في الحياة الدنيا، فهو الذي يمنع العين أن تمتد إلى محرم، ويمنع النفس أن تهمس بهواجس الشر، ويردع اللسان أن يهمس ولو بكلمة واحدة لا يرضاها ربه، لأنها كلها مسجلة معروضة محصية عليه أنفاسه وكلماته وحركاته، ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[1].

كما أن عقيدة الأجل المحدود والرزق المحدود مع العلم القطعي أن الله ﷻ بيده ملكوت كل شيء، وإليه يرجع الأمر كله، وله من في السماوات ومن في الأرض، وأنه إليه ترجع الأمور كلها تدفع المسلم إلى الرضى والتضحية، وعدم اللهاث وراء الدنيا، التي هي أساس كل ارتكاب الأعمال المخلة بالأخلاق.

1) (سورة الإسراء: 13-14).

كما أن استقرار هذ العقيدة في أعماق النفس، يجعلها عزيزة فلا تذل، وتقف أمام كل قوى الأرض، فلا ترهب سلطاناً، ولا تستخذي أمام صولة ملك وإغراء المال، وترفع صاحبها من أوحال الأرض ومستنقع الطين، فيقف في المرتقى السامق، ينظر إلى الأرض من علو، مع تواضع، وبالعزة مع المحبة والتطامن، دون استطالة ولا بغي على الناس، يود لو يرفعهم إلى هذا المستوى السامق الذي رفعه الله إليه.

وهذه هي الصورة التي وجدناها في قلوب أصحاب رسول الله ﷺ، وفي أفعالهم وتصرفاتهم، فكانوا صورة حية مجسدة لهذه العقيدة.

ومن هنا نقرر بأن أي محاولة لإصلاح أفعال الناس وتصرفاتهم -بعيداً عن تصحيح التصور العقدي- محاولة فاشلة، ولا يمكن أن تؤتي أكلها المرجوة، فينبغي أولاً تتبع المنهاج الرباني في بناء هذا الدين للنفس البشرية، وذلك بترسيخ العقيدة أولاً في أعماق النفس، ثم مطالبة هذه النفس بعدها بأوامر الشريعة كلها، إذ المنهاج الرباني في تربية النفس جزء من العقيدة ذاتها، ومن ثم لا ينبغي تتبع الجزئيات من هذا الدين في سلوك الناس، كالشرب باليمين والشرب جالساً -مثلاً-، إلى غير ذلك من هذه التفاصيل والجزئيات في سلوك الإنسان، التي لا تحتملها ولا تطيق الدوام عليها إلا نفوس تربت على العقيدة، وجبلت بعظمة الإيمان، فلا بد أن نبدأ مع النفس البشرية من حيث هي، بحيث يلتقطها من هذا الحضيض الذي هبطت إليه، ثم نسير معها صعداً، نعطيها الإيمان جرعة جرعة، نواكبها في نموها، ونقيل عثراتها، ونردها من هنا، ونهذبها من هناك، حتى تشب قائمة على عودها صلبة، لا تهزها الزلازل، ثابتة لا تجتثها الأعاصير، وهنا فقط نطلب منها كل ما يريده الله منها، وهي راضية مستسلمة مطمئنة أن الخير كله فيما نفذت؛ لأن الخير كله منحصر في منهاج الله، والشر كل الشر في الخروج عن منهاج الله سبحانه.

ضرورة صفاء العقيدة ونقائها من آراء البشر

إن العقيدة التي أشرنا إليها سابقاً لا بد أن تنبع من النبع الصافي، من الوحي الإلهي النقي، ولا بد أن تبقى صافية مصفاة من جميع الشوائب التي ربما تصل إليها أيدي البشر، كما وصلت إلى جميع العقائد والرسالات السماوية السابقة، كالنصرانية واليهودية وغيرها، لا بد أن تستقى هذه العقيدة من النبع الصافي (كتاب الله وسنة رسوله).

وقد سجل القرآن الكريم بنصوص صريحة واضحة تحريف أهل الكتاب المتعمد لكتبهم ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾[1].

وكما أن هذه العقيدة لا بد لها أن تكون صافية في ذاتها من الشوائب البشرية، كذلك لا بد أن تنقل بوعاء نظيف أيضاً من أي أساليب فلسفية تؤثر على نقاء هذه العقيدة؛ لأن هناك فرق كبير بين التصور الاعتقادي والفلسفة، فالتصور الاعتقادي يستقر في القلب ويرتضيه، ويتفاعل مع المشاعر وينعكس على التصرفات في واقع الحياة، والعقيدة – غالباً – هي أكبر العوامل التي لها تأثير في سير التاريخ وتغيير واقع الناس وحياتهم. وليس غريباً على كل مطلع، التغيير الكبير الذي حدث في الحياة منذ نزول العقيدة الإسلامية. وأما الفلسفة فإنها ترف عقلي لا يتجاوز الأخيلة، وغالباً يعيش في أذهان الفلاسفة. ولم تدفع الفلسفة بالبشرية خطوة واحدة إلى الأمام، فمعظمها نظريات تعيش في عقول الفلاسفة الذين يفكرون من أبراجهم العاجية، دون أن يكون

1) (سورة البقرة: 79).

لها حرارة التفاعل مع القلوب، أو الحياة مع المشاعر والنفوس، أو انعكاس السلوك في الحياة.

ومن الحقائق المسلمة في أذهان الذين يدرسون ما يسمى بالفلسفة الإسلامية، أنه ليس من السهل أن تنقل العقيدة الربانية بوسائل بشرية، وتفكيرات إنسانية، كما أنه لا يمكن أن تنقل اللبن الطاهر بكأس أثرها خمرة. وكذا فليس من السهل أيضاً أن تنقل التصور الإسلامي الرباني الصافي بقوالب فلسفية، لأنها تطفئ نوره وإشعاعه وتقتله، وتصبح العقيدة جافة بعد تداولها، سلبية بعد إيجابيتها، معقدة بعد سهولتها ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[1].

ولقد حاول الجهابذة من العلماء الأفاضل نقل العقيدة الإسلامية عن طريق علم الكلام والمنطق – بعد أن افتتنوا بها – كإمام الحرمين الجويني، وحجة الإسلام أبو حامد الغزالي، وفخر الدين الرازي، إلا أن التجربة كانت لديهم مرة، وكانت حصيلتها أن كادت تنزلق نفوسهم، وتضطرب تصوراتهم، مما اضطر الثلاثة أن يرجعوا عن الكلام أخيراً، بعد أن أغرقوا بالمنطق والكلام اليوناني المشرب بالأساطير الوثنية.

وكيف يمكن لعقيدة التوحيد الخالصة التي نزلت من رب العالمين أن تنقل بالتفكير الإغريقي الملوث بالوثنية؟!.

1) (سورة القمر: 17).

(ثبات التصور العقائدي) ودوره في أخلاق الأمم والشعوب

من خصائص العقيدة الإسلامية أنها ثابتة ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1]، وثبات العقيدة ناتج عن أنها منزلة من عند الله سبحانه، وقد انقطع الوحي بالتحاق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى، وبقيت النصوص ثابتة إلى يوم الدين، لا ينسخها ناسخ، ولا يبدلها كافر.

والإنسان يتحرك ويتطور وينمو، ولكن داخل إطار العقيدة الثابتة، الذي يتسع لحركة الإنسان ونموه، وإذا خرج الإنسان من الإطار الثابت فإنه يسبح كالنجم الذي انفلت من مداره، ويسير إلى نهايته التي تؤدي إلى اصطدامه بكوكب آخر، فيتحطم ويحطم معه غيره. فلا بد من شيء ثابت يرجع الناس إليه، حتى يطمئنوا ويستريحوا، ويكون لديهم مقياس ثابت يعرفون طول الأشياء وعرضها ووزنها، أما الذين يرون بأن كل شيء متطور في الحياة، حتى الدين والأخلاق والنظم، فهذا يؤدي إلى فوضى كبيرة، فلا نعلم بعدها الحكم على أي شيء. فمثلاً: الزنا ثبتت حرمته وبشاعته في الديانات السماوية كلها التي نزلت من عند الله، فلا يختلف في هذه القضية اثنان من أصحاب هذه الديانات، فإذا كان المقياس الذي حكمنا به على الزنا أنه قبيح ثابت، فإن الزنا يبقى بشعاً، ويستقر في ذهن الأجيال أن هذا الحكم ثابت لا يتغير، فتتربى قلوبهم على كراهية الزنا واحتقاره، أما إذا كان القانون والدين غير ثابتين، وكانا متطورين، فإنه

1) (سورة الروم: 30).

يعني أن الزنا كان بشعاً في فترة من الفترات، ولكن الزنا يصبح في عرف الذين يقولون بتطور الأخلاق مثل: (فرويد) مباحاً، بل ضرورة بيولوجية لا بد منها.

وكذلك ستر العورات وتغطية اللحم باللباس -خاصة النساء- كان أمراً طبيعياً وثابتاً في الأخلاق والأديان، ويبقى ثابتاً إلى يوم الدين، أما في الأخلاق المتطورة فلقد كان ستر العورة مستحسناً في عصر من العصور، ثم جاء العصر الحديث ورأى أن ستر العورة شيء مستقبح، وأصبح أصحابه ينادون بكشف العورة في أجهزة الإعلام وأبواقهم التي تفوح منها رائحة الخبث والكيد والغدر بهذا الكائن الإنساني الذي يريدون تحطيمه.

وثبات العقيدة يضع ميزاناً ثابتاً يقيس به الناس، فالميزان واحد، فإن الكيلو في هذا الميزان يساوي (1000) غرام، فإذا جئنا نزن شخصاً فإننا نضعه في هذا الميزان الواحد ونضع مقابله كيلوات حتى نعرف وزنه، وهنا يكون الحكم صحيحاً على وزن جميع الناس، لأن الوزن واحد والمعيار واحد، فإذا جاء قوم وغيروا الميزان، وقالوا عن الكيلو أنها قنطار فإن الشخص الذي يزن سبعين كيلوا غرام في الميزان الأول هو نفسه يزن سبعين قنطاراً في الميزان الثاني، والشخص هو الشخص، وعندما يختلف الميزان لا يمكن أن يكون الحكم صحيحاً. ولذا فإن الرجل عند الناس يكون مبجلاً مطاعاً محترماً؛ لأنه ثقيل في ميزانهم، ولكن عندما نضعه في ميزان الله الثابت فإنه قد لا يزن شيئاً.

فمثلا الوليد بن المغيرة كانت قريش تعتبره زعيماً، وتقول: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[1]، ولكن الله يقول عنه وعن أمثاله: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴾[2]، ويقول: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

1) (سورة الزخرف: 31) .
2) (سورة القلم: 10-11).

﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[1]، فقريش لا تقطع أمراً إلا بعد استشارته واستنصاحه، والله يسميه دابة، والمؤمنون يعتبرونه دابة بل أقل من الدابة: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾[2].

وثبات العقيدة يجعل أصلاً يرجع الناس إليه، حاكمهم ومحكومهم على السواء، فالناس يستريحون ويسعدون؛ لأن الحاكم لا يستطيع أن يظلم الناس ويقول قبل أن يظلمهم غيرت القانون، ولا يستطيع المحكومون أن يقولوا للحاكم نحن لا نعرف القانون لأنه جديد. ولكنه إذا كان ثابتاً فإن الناس يتربون منذ نعومة أظفارهم على معرفته، ويكون النظام حياً في نفوسهم ويعيش في حسهم، فلا يستطيع الحاكم في الدين الرباني أن يدعي أن الظروف طارئة، ولا أن يقول: هذه أحكام عسكرية يوقف بها تطبيق دين الله. ونحن نرى في الأنظمة الوضعية كيف تحت هذه الأسماء ووراء هذه الشعارات تسفك الدماء وتداس الكرامة وتنتهك الحرمات، وهذا هو شأن جميع الأنظمة الوضعية الأرضية، أو بتعبير أدق (الأديان الأرضية) التي اخترعها البشر من عند أنفسهم، وأبرز ما تكون هذه الظاهرة في الأنظمة العسكرية والانقلابات الثورية، ففي كل انقلاب جديد، وفي كل مرة تنصب المشانق، ودعك عن التحقيقات مع النساء في الظلام، والناس الذين يدفنون أحياءَ أو يوضعون في براميل النيتريك حتى يذوبوا..!! وفي كل مرة يغير فيها النظام تفقد البلد أعز أبنائها، وأقدر كفاءاتها، وأعلى طاقاتها، وأثمن ما لديها، وهم العينات من الشباب والمفكرين والقادة وغيرهم.

1) (سورة الأنفال: 55).

2) (سورة الأعراف: 179) .

وثبات العقيدة الربانية يجعل الناس جميعاً تحت ظل الدستور والحكم، وليس هناك حاكم فوق القانون ومحكوم تحت القانون، ونظام يسري على الحاكم ونظام يسري على المحكوم.

فالخليفة والأمير والحاكم جميعاً خلق الله، ويعبدون الله بتنفيذ القانون الرباني، فما داموا من خلق الله فهم عبيد وليسوا آلهة لا يسألون.

وهذا هو الواقع التاريخي الإسلامي يدل على هذا، فهذا يهودي يشتكي عليه الخليفة علي ﷺ إلى القاضي شريح بشأن درعه، فيحكم شريح لليهودي بالدرع. ورجل آخر يشتكي هارون الرشيد إلى القاضي أبي يوسف فيستشهد الرشيد بشهادة جعفر البرمكي فيردها أبو يوسف قائلاً: لقد سمعت جعفراً يقول لك: أنت سيدي وأنا عبدك، فإذا كان عبدك حقاً فشهادة العبد لسيده لا تجوز، وإن كان كاذباً فشهادة الكاذب لا تقبل.

ومن هنا فقد كانت الطمأنينة تلف المجتمع كله بردائها الحاكم والمحكوم سواء، وهم سعداء بهذا، لا يستطيع الحاكم أن يرفض دين الله فضلاً أن يغيره أو يبدله بدين جديد من عنده أو عند غيره.

وعلى هذا فالتطور يؤدي إلى الاستبداد السياسي والظلم ويعيش الناس في قلق دائم من تغير القوانين وتبديل الدساتير، زيادة عن التعب النفسي وعدم الطمأنينة من قبل الناس، لأنهم يعلمون أن هذه الأنظمة ليست من عند الله، فإطاعتها ليست عبادة. أما دين الله فإطاعته عبادة، ومقابل إطلاق يد الراعي في تغيير الأحكام كما يشاء هو بدوره يطلق للرعية العنان في اقتناص الشهوات والانطلاق بالسعار الجنسي إلى أقصاه، وبالنزوات الحيوانية التي لا ترتفع عن مستوى البهيمية. فهذه نتيجة طبيعية ومنطقية وواقعية لتطور النظم والأفكار.

أثر انحراف (التصور العقائدي) في السلوك والأخلاق

مما سبق يتبين لنا بكل تأكيد وبطريقة قطعية أن أي انحراف في التصور العقائدي ينعكس سلباً في حياة أصحاب هذه العقيدة، فتؤثر تأثيراً واضحاً في حياتهم وسلوكهم وتصرفاتهم، فهؤلاء أهل الكتاب من اليهود والنصارى أدخلوا في كتبهم كلاماً من عند أنفسهم، مما سبب لهم شقاءَ في حياتهم، وحشوا كتبهم معلومات بشرية تعتمد على التجارب البشرية في الجغرافية والفلك وغيرها من العلوم، وكفروا كل من خالفها، وأخذت الكنيسة تبحث عن علماء الفلك والجغرافية الذين أعلنوا اكتشافاتهم العلمية، فأنشأت الكنيسة محاكم التفتيش، فاختبأ العلماء في الغابات والمغاور، وعاقبت من المخالفين ثلاثمائة ألف، أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفاً أحياءَ، وكان منهم العالم الطبيعي (برونو) سنة (1600م)، وكذلك العالم الطبيعي (جاليليو) سنة (1642م)، لأنه اعتقد بدوران الأرض، وعذب (كوبرنيكس) .

ونتيجة لهذا الانحراف في التصور العقائدي وتحريف كتب الله سبحانه أحدث ردة فعل عنيفة لدى الناس -خواصهم وعوامهم – فبدأ العلماء يفكرون في التخلص من سلطان الكنيسة، التي وصل بها الانحراف العقدي إلى بيع صكوك الغفران، والاعتراف بالخطيئة المعروف لدى الكنيسة.

مما خلق حقداً وهجوماً شديداً على الكنيسة ودينها من قبل الناس عموماً، فانبثق عن هذا الواقع من الأفكار الفاسدة والدعوات الباطلة، التي أدت إلى الانهيار الأخلاقي في العالم الغربي على وجه الخصوص، منها:

أولاً: دعوة (نيتشه) الذي أعلن سيطرة العقل على الدين سنة 1714م.
ثانياً: ظهر (هيجل) الذي اعتبر الذات الإلهة -سبحانه- عبارة عن عقل.

ثالثاً: اشتهرت نظرية (النشوء والارتقاء) في هذه الفترة على يد (دارون) الذي وضع كتاب (أصل الأنواع) سنة 1859م، وكتابه الآخر (أصل الإنسان) سنة 1871م، مما حدا بالكنيسة إلى تكفيره، فاحتدم الصراع بينه وبين الكنيسة، وتحول الناس تدريجياً لصالح دارون، وقد وجد الناس أن هذه الفرصة سانحة للتخلص من الغول البشع الذي يضطهد الناس باسم الدين، وأنكر دارون تدخل الله في عملية النشوء والارتقاء.

رابعاً: ثم جاء (ماركس) ليعلن إلحاده من خلال أبحاثه في (الاقتصاد)، فهو يرى أن الدين والقيم الروحية والأخلاقية والسلوك، عبارة عن انعكاس عن المادة، وتاريخ العالم هو تاريخ البحث عن الطعام، وحدد المطالب الرئيسية للإنسان (المأكل والمسكن والإشباع الجنسي)، والدين عنده أفيون الشعوب.

خامساً: وجاءت بعدها صرخة (فرويد) في عالم الجنس، وقال: بأن الغرائز هي التي تحكم الإنسان، وأن الروح لا وجود لها على الإطلاق، والحياة كلها جنس، حتى الدين والأخلاق فإنها تنبثق من الجنس، فالطفل-مثلاً- يحب أمه جنسياً، ثم يجد الأب حائلاً دونها فينشأ عنده (عقد أوديب) والطفلة تعشق أباها جنسياً، ولكن أمها تحول بينها وبين أبيها فينشأ لديها (عقدة الكترا). فكانت هذه الدعوات والأفكار الهدامة العامل الحاسم الذي أدى إلى انهيار جدار الأخلاق والقيم في العالم الغربي وغيره.

ولقد كان اليهود هم وراء تحريف عقائد أهل الكتاب، كما كانوا وراء إنشاء هذه الأفكار الهدامة، كما نصت على ذلك بروتوكولات حكماء صهيون بالقول (لقد رتبنا نجاح دارون وماركس ونيتشه، بالترويج لآرائهم، وإن الأثر الهدام للأخلاق الذي تنشئه علومهم في الفكر غير اليهودي واضح لنا بكل تأكيد).

وإليك مجموعة من الآثار الأخلاقية التي خلفها الانحراف العقدي والانفلات من ربقة العقائد ولم تتقيد بعقيدة ثابتة، والتي ظهرت هذه الآثار في أشد الدول رخاء من حيث المادة:

1- سوء في التوزيع، ثراء فاحش من ناحية، وفقر مدقع من ناحية. ترف من ناحية يقابله حنق وغيظ في قلب الفقير، مما يجعل المجتمع على شفا بركان مهدد بانقضاض طبقة على طبقة.
2- الكبت والقمع والخوف في الأمم التي ادعى حكامها أنهم يريدون العدل بينهم، وقامت المجازر وسالت الدماء على الطريق.
3- الانحلال النفسي والخلقي الذي يؤدي إلى تدمير الحياة المادية ذاتها، لأن الحضارة لا بد لها من ضمان يحميها ومؤيدات تحفظها، فإذا غرقت الأمة في وحل الجنس وعفن النزوات الحيوانية فإنها تزول، والتاريخ خير شاهد. لقد اندثرت أثينا عندما عبدت الشهوة، وكذلك ذهبت الإمبراطورية الرومانية التي استغرق بناؤها ألف عام، وسقطت روما... وذلك بعد أن ألَّهت روما (فينوس) الزاني كإله للجمال، (وباخوس) السكير كإله للخمر، و(كيوبيد) الذي تقول أساطيرهم الموروثة عن اليونان أنه ابن (أفروديت) إله الحب التي زنت من ثلاثة آلهة، فأصبح (كيوبيد) إلهاً للحب.
4- القلق العصبي، والتمزق النفسي والأمراض النفسية والعصبية والجسدية والقرح المعدية، والشذوذ الجنسي، وانفصام الشخصية، والانتحار الذي أصبح ظاهرة خطيرة في المجتمعات المترفة، خاصة في قطاعات التمثيل والسينما والمسارح، والأمراض الجنسية كالزهري والسيلان، ففي أمريكا مثلاً كما تقول دائرة المعارف البريطانية، يخصص للأمراض الجنسية أكثر من الأمراض بمجموعها -عدا السل-.

وهناك أرقام مهولة ومرعبة تذكرها دائرة المعارف البريطانية، عن نسبة الشباب المصاب بالأمراض الجنسية، وهذا يؤدي إلى عدم صلاحية كثير من الشباب للجندية.

5- الخوف العالمي من الدمار الشامل في هذا العالم المضطرب، وشبح الحرب الرهيب يضغط على أعصاب الكثيرين ويقض مضاجعهم.

6- ميل بعض الشعوب إلى الانقراض.

7- بعض مظاهر التمرد التي تعبر عما تعانيه البشرية من حيرة وقلق وتعب، ومظاهر الخنافس والهبيين الذين أصبحوا يشكلون خطراً كبيراً على أمن أمريكا وأوروبا، ويعقدون الاجتماعات التي قد تعد بالملايين في الشارع العام، أكلهم وشربهم وبرازهم ونكاحهم في مكان واحد ووسط الشارع.

ويقابل هذه الصورة النكده صورة المجتمع المسلم والشخصية المسلمة التي بنتها العقيدة، فتجد صاحبها مطمئن النفس، هادئ البال، قرير العين، ليس بالقلق ولا بالحيران، حتى يقول أحدهم: نحن في سعادة لو علمها الملوك لقاتلونا عليها.

السعادة في ظل المنهج الرباني وأثرها على الجانب الأخلاقي في الإنسان

لا يختلف اثنان أن غاية ما يصبو إليه الإنسان هو إدراك السعادة في أعماق فؤاده، والشعور باللذة في العيش وطيب الحياة، فكده واجتهاده ونصبه ووصبه من أجل الراحة النفسية والطمأنينة في كيانه، ومفتاح هذا الباب خارج عن إرادة البشر، وليس بمقدور الإنسان؛ لأن القلب الذي هو مستقر السعادة بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء، ولذا فليس من سبيل إلى راحة الروح وسعادة القلب إلا باستمطار رحمة الله، ليفتح هذا الفؤاد بمفاتحه، وينعم عليه بالسعادة، ولا مفر للإنسان إن شاء أن يسعد إلا أن يسلك هذا الطريق الوحيد للسعادة النفسية، وإلا فليعش في الشقاء كيف يشاء؛ لأن الروح التي هي من أمر الله، وهي صبغته وفطرته، لا يمكن أن تجد الراحة إلا أن تشبع، وتتشبع بنظام رباني، شأنها شأن المعدة الجائعة، التي لا تهدأ إلا بالطعام والغذاء، ولا يسد جوعتها ولا يؤمن راحتها رؤية المال ولا ضجيج الإعلام، ولا هتاف المجد من أفواه الملايين، إنما يريح المعدة الجائعة قطعة خبز تدخلها فتوقف اعتصارها بالألم عنه.

وكذلك الروح لا يريحها قناطير الذهب ولا وسائل الترفيه ولا أدوات الراحة المادية، إنما يشبعها صلتها بربها فتهدأ، وتفيض السعادة منها على النفس.

والسعادة النفسية ثمرة طبيعية ونتيجة منطقية مباركة لعقيدة القدر التي تشيع الطمأنينة في أرجاء النفس.

ومن هنا تجد المسلم هادئ النفس مستقر الضمير، هانئ السريرة، منشرح الصدر، لا يستخفه متاع قليل فيبطر ويأشر، ولا يفجعه عرض زائل فيكفر.

قال جعفر الصادق: (يا ابن آدم ما لك تأس على مفقود لا يرده عليك الفوت، أو تفرح بموجود لا يتركه في يديك الموت) وقال الفضيل بن عياض: (الدنيا مبيد ومفيد، فما أباد فلا رجعة له، وما أفاد آذن بالرحيل). ولو عشنا حياة السلف الصالح ساعة لاستصغرنا الحياة كلها، بل أدركنا أننا عشنا ساعة فقط. بل إن بعض السلف كان يفرح عندما ينزل به البلاء، فرحاً بالثواب الذي ينتظره﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[1]، وقد عبر بعضهم عن هذه السعادة (إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب) ويقول ابن تيمية: (إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة) ويعني بها سعادة القلب وراحة النفس، ويقول ابن القيم: (قال لي الشيخ ابن تيمية: ما يصنع بي أعدائي، أنا جنتي وبستاني في صدري، أين رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة).

وبعد...فهذه النفوس العالية كيف تهزها الأحداث، وهذه الصدور الكبيرة كيف تقلقها النوازل، هذه القلوب المطمئنة كيف تزلزلها المحن، وهذه الأقدام الثابتة كيف يزعزعها سراب الدنيا ومتاعها الرخيص...؟!! وفي الحديث: (عَجَباً لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ

1) (سورة الحديد: 22-23).

أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خيْراً لَهُ)[1]، وقد ذكر ابن القيم في كتابه (زاد المعاد) أسباب السعادة وانشراح الصدر، وذكر منها:

1- التوحيد: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾[2].

2- العلم النافع.

3- محبة الله، فإنها نعيم القلب وسعادة الروح.

4- الإحسان للآخرين، ابتغاء مرضاة الله.

5- ترك فضول النظر والكلام والاستمتاع والمخالطة والأكل والنوم، فإن فضولها تورث آلاماً وهموماً وغموماً في القلب، تحصره وتحبسه ويتأذى بها.

وهكذا نرى أثر العقيد والإيمان على نفس الإنسان وقلبه وحياته وسعادته، ولا شك أنه ينعكس على تصرفات الإنسان وأفعاله وأخلاقه وتصرفاته. فإن الجانب الأخلاقي في البشر يتأثر تأثراً كبيراً باختلاف الحالة النفسية التي يعيشها الإنسان، فأخلاقه وهو في غاية السعادة والراحة النفسية، تختلف كثيراً عن أخلاقه وهو في غاية الضيق والألم والنكد والشقاء والعذاب النفسي. والقلب الذي يفيض سعادة وراحة ومحبة وطمأنينة، غير القلب الذي ينضح بالضيق والشقاء والألم والكراهية حتى لمن يحمله بين جنبيه.

---

1) (مسلم، برقم 2999، 2295/4).

2) (سورة الأنعام: 125).

الأصل الثاني

التوجيهات الإسلامية في الجانب الخلقي والأسس التي ترتكز على البناء العقدي

لقد أقام هذا الدين صرحاً شامخاً، وبناءَ قوياً متيناً، ممثلاً بمجتمع تحميه منظومة من الأسس الأخلاقية الراسخة والنابعة من الوحي الإلهي، الذي نزل على النبي ﷺ، وبهذه الأخلاق العالية ربى جيلاً من الصحابة، لا زال مدرسة للأجيال، ولا زال هذا المجتمع معجزة في تاريخ البشرية، ولم يتكرر مثله حتى يومنا هذا. وكل عين ترنو إلى بناء مثل هذا المجتمع الراقي لا بد أن تكون هذه الأسس هي اللبنات أو القواعد التي سيقوم عليها هذا البناء الضخم. والذين يحاولون بناء مثل هذا المجتمع ويتغافلون عن هذه الأسس الأخلاقية، لا يدركون طبيعة هذا الدين، ولم يدرسوا سيرة سيد المرسلين دراسة فاحصة عميقة.

وبالتالي فالدارس الواعي لهذه السيرة العطرة، والمتتبع لمراحلها يخرج بهذه المنظومة الأخلاقية، التي ربى عليها النبي ﷺ أصحابه، نابعة من الأصل الأول الذي قام عليه هذا الدين، وهو العقيدة الصافية، مرتكزة على هذا البناء العقدي المتين.

ومن هنا فإننا نجد النبي ﷺ أفنى ثلاثة عشر عاماً من حياته وحياة الدعوة الإسلامية في المرحلة المكية، لا يشغله سوى تثبيت العقيدة الصافية في قلوب أصحابه الكرام، حتى إذا ثبتت أركان هذه العقيدة في قلوبهم، بدأ بالتعليمات والتوجيهات الربانية الأخرى التي تمثل الفروع لشجرة هذا الدين العظيم.

ويمكن حصر هذه التوجيهات والأسس البنائية الأخلاقية – التي أقيم عليها المجتمع المسلم في المدينة المنورة لأول مرة – بما يلي:

الأساس الأول: الأخوة في الله وحفظ غيبتهم.. أو (إخوان الظواهر والسرائر) [1]

وهذا أساس مهم للبناء الذي بنى عليه رسول الله ﷺ مجتمع المدينة المنورة، فعندما أراد أن يبني مجتمعاً إسلامياً متراصاً متحاباً منع الغيبة، فلا يمكن أن تكون المحبة قائمة بين أفراد المجتمع الإسلامي إذا كانوا إخوان الظواهر أعداء السرائر، فإذا لقي أخاه يلقاه بوجه بشوش واحتضنه وعانقه وقبل كتفيه، حتى إذا خرج من عنده سلط لسانه وأطلق لنفسه العنان ليأكل لحمه بالغيبة والإساءة.

فهؤلاء هم إخوان الظواهر أعداء السرائر، يأتون هؤلاء بوجه وآخرين بوجه آخر، وأشد الناس عداءَ ذو الوجهين. وقد أدرك النبي ﷺ الأثر السلبي حين ينطلق اللسان لينهش لحوم المسلمين، ويلغ في أعراضهم، فإنه من أكثر الأدوات التي تهدمه وتحطمه، فكان ﷺ يوصي بالكلمة الطيبة (والكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ)[2]، (لا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعروفِ شيئًا، ولو أنْ تَلْقَى أخاكَ بوَجْهٍ طَلْقٍ)[3]، (تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ)[4].

---

1) المراجع:
1- في التربية الجهادية والبناء ج1.
2- في ظلال سورة التوبة.
3- في خضم المعركة.
4- الذخائر العظام ج297/3.
5- عشاق الحور.
6- الطود الشامخ (الشيخ تميم العدناني).

2) (البخاري، برقم 2989، 56/4).

3) (مسلم، برقم 2626، 2026/4).

4) (الترمذي، برقم 1956، 404/3)

وهذا من الأسباب التي جعلت جيل الصحابة جيلاً فريداً متماسكاً، لا يستطيع أشد أعداء الله سبحانه وأكثرهم قوة أن ينتزع واحداً من هذا المجتمع، كما حصل في قصة الصحابة الثلاثة الذين خلفوا ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1]، فعندما أرسل ملك غسان لـ (كعب بن مالك) رضي الله عنه رسالة يستميله كان له الموقف الثابت، ونحن سنذكر جزءاً من هذه الرواية بشيء من التفصيل لأهميتها كما رواها البخاري وغيره، يقول كعب بن مالك: (... وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا ، فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ وَتَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِي الْأَرْضُ فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَأَقُولُ فِي نَفْسِي هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ فَقُلْتُ يَا أَبَا قَتَادَةَ أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَسَكَتَ فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَسَكَتَ فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَقَالَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ فَفَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ

1) (سورة التوبة: 118).

قَالَ فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّأْمِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِك فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِك غَسَّانَ فَإِذَا فِيهِ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا وَهَذَا أَيْضًا مِنْ الْبَلَاءِ فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا...!!)[1].

هذا المجتمع الذي رباه الرسول ﷺ بهذه الصلابة وهذا التناسب، هذا المجتمع الذي أخرج عمر وأبا بكر، فيقول أبو بكر لعمر – يوم السقيفة - يا عمر: امدد يدك أبايعك، فيقول عمر: لأن تمتد عنقي إلى سيف فيقطعها في غير معصية أحب إلي من أن أتأمر على أناس فيهم أبو بكر ...!!

ولهذا امتد المجتمع بصلابته في هذا الموكب العظيم، وكان كبار الزاهدين وأئمة الفقه من التابعين وتابعيهم بإحسان يكنون لبعضهم المحبة في صور لا تكاد تمر بالخواطر، يقول الإمام الشافعي عن تلميذه الإمام أحمد:

قَالُوا يَزُورُك أَحْمَدُ وَتَزُورُهُ ... قُلْت الْفَضَائِلُ لَا تُفَارِقُ مَنْزِلَهْ
إنْ زَارَنِي فَبِفَضْلِهِ أَوْ زُرْتُهُ ... فَلِفَضْلِهِ فَالْفَضْلُ فِي الْحَالَيْنِ لَهْ

وكان الإمام أحمد كلما سمع برجل صالح يحب زيارته ليقوي به محبته لعله ينال منه دعوة صالحه، لأن الاستكثار من الإخوان زينة في الدنيا وذخر في الآخرة، وعندما غادر الشافعي بغداد قال: خرجت من بغداد وما تركت فيها أزهد ولا أورع ولا أتقى ولا أفقه من أحمد بن حنبل. وكذلك الإمام أحمد كان يقول: ما توجهت بالدعاء إلى

1) (البخاري، برقم 4418، 3/6).

الله منذ ثلاثين عاماً إلا ودعوت للشافعي. وكان يقول له ابنه يا أبت من هذا الشافعي الذي تدعو له دائماً؟ فقال: يا بني: لقد كان الشافعي كالشمس للدنيا وكالعافية للبدن فهل عن هذين من غنى؟!! هكذا كانت صلاتهم مع بعضهم بعضاً.

ولقد رأيت أرض الجهاد والنزال والقتال في سبيل الله، هي خير أرض ومكان يمكن أن تنشأ وتربى فيه هذه الفئة من البشر، المتحابة والمتآخية أخوة حقيقية صادقة، وتتربى فيه على المحبة والإيثار والأخوة الصادقة.

إن أرض الجهاد وساحات القتال والتعرض للموت في كل حين، وحرارة القتال والمعارك التي تجعل النفس طيعة للتلقي وتتجاوب مع الإيحاءات الربانية والتفاعل مع النصوص، هذه الأجواء تصنع فئة من البشر تكون نماذج راقية، يتصفون بصفات تصنع مجتمعاً أخوياً متحاباً، بعيداً عن التنافس على شهوات الدنيا، التي تمزق الأفراد والمجتمعات وتصنع البغضاء بينهم، وتحيل المجتمع إلى ركام من البشر يتصارعون ويتكالبون على متاع الدنيا الزائل.

لقد خرج من بين هذه الفئة – من العرب - التي نفرت في سبيل الله، وقدمت إلى أرض الجهاد - تاركين الدنيا وأهلها وراءهم -، هؤلاء اختار الله منهم كوكبة من الشهداء، بعد أن عشنا معهم فترة من الزمن، وعرفت فيهم مجموعة من الصفات والأخلاق العالية، والتي تكاد لا تتخلف في واحد من هؤلاء، منها:

1- حفظ اللسان عن المسلمين.
2- سلامة الصدر على المسلمين.
3- العمل بصمت والبعد عن ضجيج الإعلام.
4- طاعة الأمير.

5- قلة الجدل والنقاش فيما يوجهون إليه.
6- الحياء الجم والأدب الرفيع، والاحترام الشديد للعلماء والكبار.
7- الحرص الشديد على البقاء في أرض القتال داخل الجبهات.
8- ألسنتهم دائماً تلهج بذكر محاسن المسلمين وحسناتهم.
9- التواضع وعدم العجب والغرور بأفعالهم.

ومن لوازم الأخوة في الله (خلق الوفاء)، ولقد عرفت هذا الخلق النادر في هذا الزمان في الشيخ تميم العدناني، فكان مثلاً أعلى في الصدق والوفاء.

فهذه الصفات الأخلاقية العالية إذا انتشرت في المجتمع، فسوف تصنع جيلاً متحاباً مترابطاً متآخياً، بعيداً عن التنافس على الأهواء، وعلى لعاعات الدنيا الفانية، والتي هي السبب في النزاعات وتمزق الجماعات والأفراد.

الأساس الثاني: حسن الظن بالمسلمين والصالحين [1]

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾[2]، تمثل سورة الحجرات أحد الأركان الأساسية في بناء المجتمع المسلم، إذ أن النظام الاجتماعي في الإسلام، وترتيب الأسرة، وآداب الزيارة، وأحكام اللباس، وغير ذلك، إنما يؤخذ من ثلاث سور (الحجرات، النور، الأحزاب)، وسورة الحجرات – على قصرها وقلة آياتها - ثقيلة جداً في ميزان الرحمن، ثقيلة جداً في بناء هذا الكيان الإنساني، ولن يكون هناك مجتمع أبداً – سواء كان جاهلياً أو إسلامياً - ما لم يخطو المجتمع على خطوات هذا النظم الكريم من سورة الحجرات، ويتبع هذه الآيات العظيمة الثقيلة في ميزان الله سبحانه في الدنيا والآخرة.

والمجتمع مكون من أشخاص، ولن يكون هناك مجتمع أبداً ما لم تكن بينه روابط قوية ووشائج وثيقة، وصلات عميقة، تحفظ هذا البنيان من الانهيار، وتحميه من التحطم والاندثار.

وآيات سورة الحجرات تبين كيف يعيش الفرد ضمن إطار المجتمع المسلم الذي يقوم بناؤه على المحبة وصلات المودة. وإذا لم تتبع الحركة الإسلامية هذا المنهج الذي وضعته

---

1) المراجع:

1- في التربية الجهادية والبناء ج1.

2- في ظلال سورة التوبة.

3- موسوعة الذخائر العظام ج8/3، 653.

2) (سورة الحجرات:12)

آيات الحجرات، ولم تلتزم به، فلن يكون هناك بيت مسلم، ولن يكون حركة إسلامية، ولن تصل في يوم من الأيام إلى مراميها، ولن تجد مرادها في واقع الأرض.

فإذا أراد المسلم مع المسلم كأفراد، وأراد البيت المسلم الذي لا يتجاوز أصابع اليد، وإذا أرادت الحركة الإسلامية التي تنتظم من أعداد محدودة، وإذا أراد المجتمع المسلم أن يكون نواة حية للعالم بشكل عام.... إذا أراد هؤلاء عموماً أن يقوموا على ثوابت وقواعد وثيقة، وأن يضربوا في الأرض جذوراً عميقة، لا بد أن يلتزموا بالمنهج الذي وضعته آيات سورة الحجرات. فإذا لم يلتزموا هذا المنهج تنقلب الأسرة وكذلك الحركة الإسلامية إلى شركة اقتصادية، كل يؤدي دوره متثاقلاً، يقتلهم الملل، والسآمة تزهق أرواحهم، ويتمنى كل فرد منهم الوقت الذي يتخلص من هذا العيش الذي يجب أن يكون هادئاً، ويشعر كل فرد في الحركة الإسلامية بأن مسؤوله فوق صدره كحجر الطاحون، وأن حركته التي يعمل فيها كأنها فكي رحى تسحق كيانه، وتبدد حياته وتهدد وجوده. ومن هنا لا يمكن أبداً لحركة إسلامية أو بيت مسلم أن يستمر دوماً على هذا الحال، وحينئذ يتفلت أفراد الحركة الإسلامية، أو حتى أفراد الأسرة، وتتشتت أعضاء هذا البيت وتتمزق صفوفه، ويذرى في الهواء، وبالتالي تتطاير أشلاء هذا المجتمع هباءً منثوراً أدراج الرياح.

إن أهم القواعد التي ترسيها سورة الحجرات والتي يبنى عليها المجتمع المسلم، (حسن الظن بالمسلمين)، وعدم البحث عن عيوب الناس، لأن سوء الظن بالآخرين هو الذي يدفع الإنسان للبحث عن عيوب الناس، فإذا حدثتك نفسك بالبحث عن عيوب الآخرين -منطلقاً من سوء الظن بهم-، فانظر إلى عيوبك أولاً، وتذكر أخطاءك، وكما

قال رسول الله ﷺ: (وَيَرَى الْقَذَاةَ فِي عَيْنِ أَخِيهِ , وَيَدَعُ الْجِذْعَ فِي عَيْنِهِ!)[1]، فمن سوء ظنه بأخيه يكبر القذى الصغير، بينما هو لا يرى الجذع الذي في داخل عينه، نظراً لحسن ظنه بنفسه وسوء ظنه بالآخرين.

فلو كان يحسن الظن ويرى نفسه على حقيقتها وواقعها، لعلم بأن ذنوبه ومعايبه ونقائصه أكبر وأعظم من أن ينظر إلى عيوب أخيه وزلاته.

ولقد علمنا رسول الله ﷺ بأن نعرف للناس قدرهم ومكانتهم ونحسن الظن بهم، وننزل الناس منازلهم. ومن حسن الظن بهم أن نقيل عثرات الصالحين، لأننا نظن بهم خيراً، ونظن بأن أخطاءهم القليلة تغرق في بحر حسناتهم، ففي الحديث: (أَقِيلُوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ عَثَرَاتِهِمْ)[2]، كما علمنا فقهاؤنا العظام بأن نحسن الظن بالمعروفين بالصلاح، ولا نصدق الفساق الذين ينشرون الدعايات عنهم، بل حسن ظننا بهم يدفعنا أن لا نصدق عنهم إلا الخير؛ لأنهم معروفون بالصلاح. ولقد قرر السادة الفقهاء من المالكية بأن الدعاوى على المعروفين بالصلاح والتقوى، لا تقبل من المستهترين والفساق، فإذا جاء فاسق ليرفع دعوى – إلى المحكمة الإسلامية في الدولة الإسلامية - على رجل معروف بصلاحه وتقواه، فعلى الشرطة أن تلقي بهذا المستهتر والفاسق في السجن، وذلك حتى لا يتطاول الأشرار على الأبرار، وحتى لا يساء الظن بمن عرفوا بالصلاح والتقوى؛ لأن إساءة الظن بهؤلاء الصالحين يسقط اعتبارهم في المجتمع المسلم؛ ولأنهم قدوة بين الناس، والسماح للفساق بالنيل منهم، يسقط قدوتهم في المجتمع، وهذا من أخطر ما

1) (البخاري في الأدب المفرد، ص478).

2) (أبو داود، برقم 4375، 133/4. وفي كنز العمال للهندي،311/5، زيادة على هذه الرواية: "فو الذي نفسي بيده إن أحدهم ليعثر وإن يده لفي يد الله" لكنها ضعيفة)

واجهته وتواجهه الأمة الإسلامية عبر التاريخ القديم والحديث، وهو النيل من القدوات الصالحة.

وهذا منهج خبيث نهجه الشيعة في حق أصحاب رسول الله ﷺ، وفي نظرتهم السيئة لهؤلاء الصحب الكرام، ولقد أساء الشيعة الظن بأفضل هذه الأمة، (بأبي بكر وعمر وعثمان وبقية الصحابة الكرام)، ولم يستثنوا منهم إلا أربعة أو خمسة، واتهموهم بأقبح التهم وأساؤوا بهم الظن لدرجة أن اتهموهم بالكفر والزندقة.

وإساءة الظن بالصحابة هي إساءة ظن برسول الله ﷺ، فالطعن بالصحابة هو تهمة لرسول الله بأنه قد فشل في تربيته لأصحابه، بل إن نظرة الشيعة السيئة للصحابة الكرام هو هدم لمقام النبوة، وجرح بعلو مكانة الرسول ﷺ، وسوء ظن بقدرات النبي عليه الصلاة والسلام على تربية الناس وإعدادهم.

ولقد وصل- سوء ظن الشيعة – بزوجة رسول الله ﷺ، عائشة الصديقة بنت الصديق، وهي التي نزل فيها عشر آيات من القرآن لتبرئتها من التهمة.

وهذا كله في كتب الشيعة منصوص عليه، لا يخفونه، ولقد سمعتهم -بنفسي وبأذني- مرة في المسجد النبوي يسبون أبا بكر وعمر بصوت عال. وما ذلك إلا منهجاً خبيثاً بترتيب (اليهود) ومضاعفات الأيام لآراء (عبد الله بن سبأ).

وفي العصر الحديث هناك أجهزة التوجيه والبث في الدول الوضعية تخشى أن يتأثر الشباب برموز الأمة وقادة الفكر الإسلامي، فلم يجدوا إلا تشجيع هذا المنهج (منهج التشكيك وسوء الظن بالصالحين والعلماء وقادة الفكر الإسلامي المعاصرين)، فقادوا

هذه الموجة الشرسة التي أوصلت -بعض الذين لا يعلمون - إلى تكفير بعض نماذج العصر وقادة الفكر الإسلامي وتشويههم وبث الشبهات حول كتاباتهم وكتبهم وعقائدهم.

فهذا – عملاق الفكر الإسلامي (سيد قطب) - الذي هز الظالمين بكتاباته ومؤلفاته ومواقفه - التي أصبحت نموذجاً في التضحية والفداء لهذا الدين -، تعرض لهذه الموجة الشرسة من قبل أجهزة البث والتوجيه، تعرض للتكفير والتشكيك واتهامه بعقيدته، والهدف واضح من ذلك، وهو حجز الجيل عن كتب هذا العملاق ﷺ.

وهؤلاء البسطاء الذين يزرعون الشك وسوء الظن بالصادقين وقادة الفكر الإسلامي - هم في الحقيقة ضحية أجهزة عالمية وأنظمة تعمل ضد الإسلام – ويظن هؤلاء المغفلون بأنهم يصدعون بالحق ويخدمون دينهم، وهم لا يعلمون بأنهم خدم لأهداف أعداء الله، ويطعنون الإسلام الطعنة النجلاء، حين يشوهون العلماء والصالحين والدعاة، ويسقطون القدوات أمام الجيل المسلم.

لقد كان العلماء الصادقون من قبل قدوات في الحقيقة، وأمثلة يقتدي بها الناس، وكانوا هم الأمراء الحقيقيين، بل كان الحكام يتقربون إلى العلماء الصادقين حتى يثبتوا حكمهم، فكانوا يهابونهم بالفعل، ويقبلون أياديهم ورؤوسهم، لأن لهم مكانة عظيمة في قلوب عامة الناس. فهذه أمي رحمها الله، قالت لي سميتك (عبد الله) على اسم العالم (عبد الله المعاني) الذي كان في قريتنا إماماً للمسجد، فكنت أقول لها أحياناً: الأمر في الفعل الفلاني كذا وكذا، فكانت تجيبني: لا.. العالم عبد الله المعاني قال: كذا وكذا ...!! مع أنني أعلم منه في الفقه، ومع ذلك كانت ترفض إلا قول هذا العالم، وذلك لمكانة العلماء في نفوس الناس. ومن هنا أدرك الطواغيت وأعداء الإسلام أن مكانتهم

بين الناس مرهونة برضى العلماء عنهم، فوجدوا أن أقرب طريق لإسقاط مكانة الصالحين والعلماء هو تشويههم وزرع الشك وسوء الظن بهم في قلوب الجماهير في المجتمع المسلم. ولذلك يجب أن نحذر كل الحذر من الإساءة للدعاة والصاحين والقدوات في المجتمع المسلم، ولا نكون أداة سهلة لتنفيذ أهداف أعداء الإسلام.

ومن سوء الظن (ظاهرة التكفير بلا ضوابط) لعامة الناس، والتي انتشرت بين الجهلة بالعلم الشرعي والفقه الإسلامي. ولو كان (حسن الظن بالمسلمين) قائماً في نفوسهم، لما تجرأوا هذه الجرأة، فسوء الظن بالآخرين وعدم التماس الأعذار لإخوانهم من عامة المسلمين، هو الذي يدفعهم لهذه الأحكام الخطيرة، والجرأة العجيبة.

الأساس الثالث: عدم الغيبة والنميمة والسخرية بالأفراد والجماعات[1]

وهو من الأسس الذي وضعته آيات سورة الحجرات، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّ ﴾[2]، والنهي - في القواعد الأصولية - يقتضي التحريم، ما لم تصرفه عن التحريم قرينة إلى الكراهة، ولم يقل أحد من الأمة بأن السخرية بالمسلم أو - ذكره بما يكره في غيبته - مكروهة، فالسخرية والغيبة محرمات بالإجماع، بل هي من الكبائر، ولا بد من التوبة بشروطها، ففي الحديث الشريف: (المُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ: لا يَظلِمُه، وَلا يَحْقِرُهُ، وَلا يَخْذُلُهُ، التَّقْوَى هَاهُنا "ويُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مرّاتٍ" بِحَسْبِ امرئٍ منَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِر أَخاهُ المُسْلِمَ، كُلّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حرامٌ: دمُهُ، ومالُهُ، وعِرْضُهُ)[3].

والعرض ليس فقط العورة المغلظة، بل هو محل الذم والمدح من الإنسان، فإذا اغتبت مسلماً فقد نلت من عرضه، وإذا نممت على مسلم فقد جرحت عرضه، وإذا سخرت من مسلم فقد انتقصت من عرضه.

والرسول ﷺ لم يغفل عن هذه القضية المهمة في بناء المجتمع المسلم، فلقد كانت ركناً ركيناً في خطبة الوداع الذي ودع بها أصحابه والدنيا، يوم أن وقف يوم الحج الأكبر

---

1) **المراجع:**
1- في التربية الجهادية والبناء ج1.
2- موسوعة الذخائر العظام ج9/3، 295.
3- في ظلال سورة التوبة.

2) (سورة الحجرات:١١).

3) (مسلم، برقم 2564، 1986/4).

فقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، قَالَ: فَأَيُّ بَلَد هَذَا؟ قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ، قَالَ: فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ، قَالَ: فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فَأَعَادَهَا مِرَارًا ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَوَصِيَّتُهُ إِلَى أُمَّتِهِ فَلْيُبْلِغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ)[1].

فإذا أراد المسلم أن تبقى بينه وبين أخيه المسلم الصلة قائمة، فإن لم يفده ولم ينصره ولم يحفظه، فلا أقل من أن يكف أذاه عنه، ويبعد شره عنه، فإذا انتقص من عرضه أو نال من شرفه أو أكل ماله أو سفك دمه، فلا يمكن لقلب هذا أن يميل إليه أو يحبه، وبالتالي لن تأتلف القلوب.

وحرمة عرض المسلم – بالمفهوم العام - قاعدة أصيلة في الحفاظ على المجتمع المسلم من الانهيار، وقاعدة أساسية في بقاء البيت المسلم والمجتمع المسلم والأمة المسلمة كلها.

دافع السخرية من الناس...؟

إن السخرية ناتجة عن الشعور بالغرور والكبر إزاء الآخرين ممن ينظر إليهم بعين الانتقاص والازدراء، وذلك لأن صغار الناس لا يسخرون من الملوك، بل السخرية تأتي من الكبار إلى الصغار، حين يشعرون بالرفعة على الناس، والتكبر عليهم بالمال أو الجاه أو بالعزة. وحين يسخر الإنسان من الآخرين لا يعلم بأن الذي وهبه هذه الأمور كلها التي يتعالى بها على الناس ويشعر بالكبر والعلو عليهم بها، إن هذه النعم التي وهبها

1) (البخاري، رقم 2،1739/176).

الله إياه إنما هي هبة من الله سبحانه، وهو قادر سبحانه أن يسلبها منك متى شاء. فسبحان من يعز من يشاء ويذل من يشاء، يخفض القسط ويرفعه، ويرفع أناساً ويضع آخرين. حتى لو وصل الإنسان إلى أن يكون ملكاً فإن المعصية تطارده إذا سخر من الناس. يقول الحسن البصري: (فإنهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين، فإن ذل المعصية لا تفارقه، أبى الله إلا أن يذل من عصاه)، قال تعالى:﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾[1].

1) (سورة الحج:١٨).

الأساس الرابع: عدم التنابز بالألقاب، وعدم اللمز والهمز والغمز [1]

وهذا الأساس أيضاً من الأسس التي وضعتها آيات سورة الحجرات ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾[2]، ويقول الرسول ﷺ: (بِحسْبِ امرئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أخاهُ المُسْلِمَ...)[3].

إن كل دين نزل من السماء نزل ليحافظ على الضرورات الخمس: (الدين، العرض، النفس، العقل، المال)، وقلنا بأن مفهوم العرض ليس هو السوءتين، إنما (العرض) هو كل ما يمدح ويذم من الإنسان، فإن انتقصت من عرضه أو نلت من شرفه فقد مسست بحرمة أخيك، ووقعت في ظلمه والإساءة لشرفه وكرامته.

إن التنابز بالألقاب نوع من أنواع السخرية والاستهزاء، لكن يختلف في الأسلوب والطريقة، فإذا فعلت هذا في مسلم، فإنك تشعر بالعلو والترفع على هذا المسكين، وتشعر بنفسك أنك خير منه. فلا ينبغي لمسلم أن يترفع على أحد أو يلمزه أو يذكر عيوبه، فلعله خير منه.

إذا شئْتَ أن تحيا سليماً مِنَ الأذى ... وحظُّكَ موفورٌ وعِرْضُكَ صَيِّنُ
لسانَكَ لا تَذْكرْ بهِ عورةَ امرىءٍ ... فَكُلُّكَ عَوْرَاتٌ وَللنَّاسِ أَلْسُنُ
وَعَيْنُكَ إنْ أَبْدَت إِليْكَ مَعائِباً ... فَصَنْها وَقُلْ يا عَيْنُ لِلناسِ أَعيُنُ

1) **المراجع:**
1- في ظلال سورة التوبة320- 442.
2- في التربية الجهادية والبناء ج1.
3- موسوعة الذخائر العظام ج3.

2) (سورة الحجرات: ١١).

3) (مسلم، برقم 2564، 1986/4).

فهذه من الآفات الاجتماعية التي تنخر في المجتمع فتدمره (اللمز والهمز) قال تعالى: ﴿ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾[1]، ﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ﴾[2]، وقد تعرض القرآن الكريم لهذه الآفات في مواطن عديدة.

وهناك فروق بين اللمز والهمز ،منها:

اللمز: هو المعيبة باللسان، والهمز: هو المعيبة بغير اللسان، كالإشارة باليد أو غير ذلك.

واللمز: الطعن بالإنسان في حضوره، بينما الهمز الطعن بالإنسان في غيبته وعدم حضوره ﴿ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ﴾[3].

أضواء على آية عجيبة:

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾[4].

هذا التعبير الرباني لا يقدر عليه البشر، لأنك عندما تلمز أخاك المسلم وتعيبه، إنما تعيب نفسك؛ لأنه مؤمن (الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ)[5] ، (تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى)[6]، والأمة الإسلامية جسد واحد، لا تشتغل إلا كلاً، فمنهم عينها، ومنهم أذنها

1) (سورة الحجرات: ١١).
2) (سورة الهمزة: ١)
3) (سورة القلم:١٠-١١)
4) (سورة الحجرات: ١١).
5) (البخاري، برقم 6026، 12/8)
6) (البخاري، برقم 6011، 10/8)

وثالث قلبها ورابع يدها وخامس رجلها، وأي عضو أو شلو من الأشلاء يفقد إنما تنتقص الأمة الإسلامية في إنتاجها وإعطائها وبذلها وتضحيتها.

إن ذوي الألباب الضيقة لا ينظرون إلى الإسلام إلا من خلال مجتمعهم الصغير الضيق، ومن خلال مجموعتهم القليلة، وهذا لعمر الله ضرر بالإسلام وضرر حتى بالإنسان نفسه؛ لأنه يظن أن إصبع رجله بعيد عن إصبع يده، فالفرد المسلم ومجموعته وتنظيمه وحزبه، إنما تمثل من الإسلام والمسلمين جزءاً قليلاً من رأس أنملة، فإذا أخذ إنسان سكيناً حاداً وقطع إصبع يده أو رجله - بسبب بعده عن إصبع اليد - إنما يقطع جزءاً من أجزائه، وينفي شلواً من أشلائه، ويبيد كياناً وجارحة من جوارحه، فمن إصبع الرجل المقطوع تبدأ الجراثيم تغزو جسمه من هذا الجزء الذي كان ثغراً محمياً بأخيه، وهكذا تستمر الجراثيم في غزو جسمه حتى تصل إلى جماعته وحزبه أو مجموعته فتنهكها وتهلكها وتشلها ثم تنهيها تماماً. وذلك لأن الأمة المسلمة كيان واحد... وجسد واحد، فكيف لمسلم أن يطلق العنان لنفسه بالسخرية والاستهزاء والنظر باحتقار إلى الآخرين وازدراء الناس، أو يطلق للسانه بالنميمة واللمز والهمز وغير ذلك...؟!

وفي مسند الإمام أحمد: (لَا تُؤْذُوا عِبَادَ اللَّهِ وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ وَلَا تَطْلُبُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ طَلَبَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ طَلَبَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ حَتَّى يَفْضَحَهُ فِي بَيْتِهِ)[1]. فهذا التعبير الرباني القصير المعجز ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[2]، يشير إلى هذا المعنى العميق في الأمة المسلمة.

1) (مسند أحمد بن حنبل، 279/5)
2) (سورة الحجرات: ١١)

ثلاث نتائج وعلامات خطيرة لتتبع عورات المسلمين بالغيبة واللمز والغمز والهمز:

أولاً: أنها علامة نفاق في الإنسان، ففي الحديث: (يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانه وَلَمْ يَدْخُلْ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعْ اللَّهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ يَتَّبِعْ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ)[1].

فالطعن بالناس علامة نفاق وليس علامة إيمان، فعن ابن مسعود ﷺ قال رسول الله ﷺ: (لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلَا بِاللَّعَّانِ وَلَا الْفَاحِشِ وَلَا الْبَذِيءِ)[2]، وفي صحيح البخاري عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا (أَنَّ يَهُودَ أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: عَلَيْكُمْ وَلَعَنَكُمْ اللَّهُ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، قَالَ: مَهْلًا يَا عَائِشَةُ عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ وَإِيَّاكِ وَالْعُنْفَ وَالْفُحْشَ)[3]، وفي رواية: (اسْتَأْذَنَ رَهْطٌ مِنْ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: بَلْ عَلَيْكُمْ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّه، قَالَتْ: أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا، قَالَ: قَدْ قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ)[4]، وفي لفظ آخر: (مَهْ يَا عَائِشَةُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَالتَّفَحّشَ)[5]، فلم يقبل رسول الله ﷺ أن ترد عليهم زيادة، أو تخرج لفظاً واحداً بذيئاً من فمها الطاهر.

---

1) (مسند أحمد بن حنبل، 279/5)
2) (الترمذي، برقم 1977، 418/3).
3) (البخاري، برقم 6030، 12/8).
4) (مسلم، برقم 2165، 1706/4).
5) (مسلم، برقم 2165، 1707/4).

وعيوب الناس التي تتعرض للمز والهمز، تقسم إلى قسمين: إما أن تكون عيوب صحيحة وموجودة بالفعل فيهم، وإما أن لا تكون فيهم.. فإن لم تكن فيهم فالويل كل الويل لمن لمز وهمز وافترى عليهم، ففي الحديث: (مَنْ ذَكَرَ امْرَأً بِمَا لَيْسَ فِيهِ لِيَعِيبَهُ بِمَا لَيْسَ فِيهِ حَبَسَهُ اللَّهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَأْتِيَ بِنَفَاذِ مَا قَالَ فِيهِ)[1]، حتى يحقق ما قال فيه ولن يتحقق أبداً؛ لأنه كذب وافتراء. ومن هنا ينبغي أن ينتبه الإنسان لكل كلمة تخرج من فمه:

احفَظ لِسانَكَ أيُّها الإِنسانُ ... لا يَلدَغَنَّكَ إِنَّهُ ثُعبانُ

كَم في المَقابِرِ مِن قَتيلِ لِسانِه ... كانَت تَهابُ لِقاءَهُ الأَقرانُ

وكَلْم اللسان أنكى من كَلْم السنان، لأن كَلْم السنان يبرأ منه الإنسان لأنه في الجلد، أما كَلْم اللسان فلا يبرأ؛ لأنه يكسر القلوب ومن الصعب أن تعود القلوب سليمة بعد كسرها. ففي الحديث الشريف: (إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ)[2]. فالرجل يتكلم بالكلمة دون أن ينتبه لها، ولا يلقي لها بالاً، وهو يحتسي كأس الشاي أو القهوة، يريد أن يملأ الفراغ عنده ويسامر جلساءه، فيتكلم الكلمة سخرية من أخيه المسلم لمزاً أو همزاً، هذه الكلمة يكتب الله له بها سخطه إلى يوم القيامة.

1) (الطبراني في الوسط، برقم 8936، 380/8).

2) (البخاري، برقم 101/6478،8)

وماذا يخسر الإنسان وماذا يضره لو تكلم الكلمة الطيبة، أم أن هذا حرمان له من الخير.

لا خَيلَ عِندَكَ تُهديها وَلا مالُ فَليُسعِدِ النُطقُ إِن لَم تُسعِدِ الحالُ

فهناك شريحة من الناس مليئة قلوبهم بالحسد والبغضاء والحقد والضغينة على مسلم، وهذا حرمان من الخير؛ لأن (تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ)[1].

ماذا عليه لو بسط وجهه وفردت أساريره في وجه أخيه، وماذا عليه لودعا أخاه بأحب الأسماء إليه ليدخل السرور إلى قلبه؟ فقد يكون القلب منكسراً فتجبره هذه الكلمة، وقد يكون متألماً فتشفيه هذه اللفظة، ماذا عليهم هؤلاء ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾[2]، حتى يبخل بالسلام والكلمة، (أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ)[3].

ولا يزيد العمر إلا البر، والعمل الصالح، فاعمل على ملء قلبك بالحب، وبهذا تمد نفسك ينبوعاً صافياً من الحسنات لا يتكدر، ينبوعاً يصب عليك الحسنات وأنت جالس في بيتك.

وفي الحديث: (اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ وَأَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا)[4]، تصرفات

1) (البخاري في الأدب المفرد، ص481).
2) (سورة الأحزاب:١٩)
3) (مسلم، برقم1،74/54).
4) (الترمذي، برقم 2305، 127/4)

ثلاث ذكرتها الآية الكريمة كلها محرمة (السخرية، واللمز، والتنابز بالألقاب)، ونتيجة كل واحدة من هذه الثلاث جزاؤها عند الله أن تأخذ اسمين وتفقد اسماً عظيماً ... كان الاسم عند الله (مؤمناً)، فأعطي بدله اسم (الفسق والفسوق).. وإذا لم يتب يعطيه لقباً آخر (الفسق والظلم) ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1].

باع المسكين اسم (المؤمن) واشترى اسم (الفاسق واسم الظالم..).. وبماذا؟ بهمزات لسان.. وومضات شفاه.. أو تلمظ شفاه أو حركات قلب على أخيه المسلم، لقد تعس هذا المسكين، تعس وانتكس من تخلى عن مسمى الإيمان وأخذ من الله سبحانه اسمين (اسم الفسق واسم الظلم)..!! إنها تجارة وبيعة ملعونة...!! أي لعنة هذه البيعة التي باع بها إيمانه واشترى بها فسقاً وظلماً..

والمؤمن أخو المؤمن، فكل مسلم في الأرض إنما هو أخ لنا تجمعنا به وشيجة الإيمان والإسلام..! وهناك من يظن بأن الصيام والصلاة والزكاة أعظم عند الله سبحانه من صون حرمات المسلم ونصرته أو خذلانه.. وهناك من يظن بأن الزنا والربا أعظم حرمة من عرض المسلم، وهذا خطأ، ففي المستدرك على الصحيحين: (الرِبَا ثَلَاثَةٌ وَسَبْعُونَ بَابًا، أَيْسَرُهَا مِثْلُ أَنْ يَنْكِحَ الرَّجُلُ أُمَّهُ ، وَإِنَّ أَرْبَى الرِّبَا عِرْضُ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ)[2] ..!!

تصور أن قطعة صغيرة من اللحم قد جعلها الله سبحانه بين سجنين عظيمين في داخل أربعة سجون عظيمة، فكين عظيمين وشفتين، لا تتعدى بضع سنتمترات، تجر

1) (سورة الحجرات:11)

2) (المستدرك للحاكم، برقم 43/2259،2)

المسلم إلى النار..!! لقد جعل الله لنا أذنين اثنتين ولساناً واحداً حتى نسمع أكثر مما نتكلم.. ومن ينظر في حالنا -كمسلمين- يدرك أنه لم يشتتنا ولم يفرق جمعنا ولم يدمر مجتمعنا إلا هذا اللسان الذي أضر بنا كل الضرر، ولم يراعِ فينا إلاً ولا ذمة.

والعجيب أن الإنسان حين يلمز أو يهمز أو يعيب أخاه المسلم، لا ينظر إلى عيوبه، ولو نظر وأدرك عيوبه ما عاب إنسان على الناس، وقد ورد في الأثر أن عيسى عليه السلام حين جيء بامرأة زانية لرجمها، وأخذ كل واحد يتحوقلون ويسترجعون مستعظمين فعلتها مستنكرين لجريمتها، قال عيسى لهم: (من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها) ...!! والحمد لله أننا لا نشم رائحة ذنوبنا، حتى لا تزكم أنوفنا، فقد جاء في الأثر: (إِذَا كَذَبَ الْعَبْدُ تَبَاعَدَ عَنْهُ الْمَلَكُ مِيلًا مِنْ نَتْنِ مَا جَاءَ بِهِ)[1]، فعندما قالت السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لرسول الله ﷺ عن صفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا "تَعْنِي قَصِيرَةً"، فَقَالَ: لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ)[2]، أي لو اختلطت بماء البحر لأنتن البحر منها.

وفي الحديث: (وَيَرَى الْقَذَاةَ فِي عَيْنِ أَخِيهِ , وَيَدَعُ الْجِذْعَ فِي عَيْنِهِ!)[3]، يرى قذاة صغيراً في عين أخيه فيكبره، وهو لا يرى الجذع – جذع الشجرة - في داخل عينه، ويعني هذا أن الإنسان ينبغي أن ينظر إلى عيوبه التي هي أكبر من أن ينظر إلى زلات إخوانه.

1) (الترمذي، برقم 348/1972،4).
2) (أبو داود، برقم 269/4875،4)
3) (البخاري في الأدب المفرد، ص478)

وكان بعض الصحابة رضوان الله عليهم يمسك بلسانه ويقول: هذا الذي أوردني المهالك، وفي حديث معاذ ﷺ، قال له رسول الله ﷺ: (ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يُكِبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ ؟)[1].

ثانياً: أن الله سبحانه يتتبع عورة من فعل هذه الأمور، حتى يفضحه ويخزيه ولو داخل بيته.

ثالثاً: التنابز بالألقاب وهذه نتيجة تلقائية لتتبع عورات الناس ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِۚ ﴾[2]، هذا الهمز والغمز واللمز بالمسلمين – بشكل عام -، أما الهمز واللمز بالرسول ﷺ، أو بسنته، أو الاستهزاء بحكم من أحكام الدين، فقد تولى ابن تيمية رحمه في كتابه (الصارم المسلول على شاتم الرسول) بيان هذا الأمر بالتفصيل، ونقل الإجماع على أن الذي يشتم أو يهزأ أو يلمز أو ينتقص من شخصية الرسول ﷺ – مازحاً أو جاداً - فإنه يقتل، ولكن هل يستتاب أو لا، فالجمهور قالوا :يقتل ولا يستتاب، ولكنهم متفقون على كفر من فعل هذا .

ولأهمية هذا الموضوع وخطورته ننقل كلام ابن تيمية من كتابه المذكور، قال ابن تيمية: (قال الإمام أحمد: "كُلُّ مَنْ شَتَمَ النَّبِيَّ ﷺ أَوِ انْتَقَصَهُ - مُسْلِمًا كَانَ أَوْ كَافِرًا - فَعَلَيْهِ الْقَتْلُ"، وأرى أن يقتل ولا يستتاب. وقد نقل الإجماع - على قتله - غير واحد من العلماء، منهم ابن المنذر وإسحاق بن راهويه. قال الخطابي: لا أعلم أحداً من

1) (ابن ماجة، برقم 3973، 1314/2).
2) (سورة الحجرات: ١١)

المسلمين اختلف في وجوب قتله، وقال القاضي عياض: أجمعت الأمة على قتل منتقص النبي ﷺ، ونقل العلماء الإجماع على قتله وتكفيره. ثم قال ابن تيمية بعد ذلك: وهذا الإجماع الذي نقل محمول على إجماع الصدر الأول من الصحابة والتابعين)[1].

وهكذا الاستهزاء بفاعل السنة - كاللحية واللباس الشرعي -، إذا استهزأ به لدينه، فإنه يخرج من الملة، وكذلك اتهام الإسلام بالرجعية خروج من الدين، فلو قلت لإنسان: لماذا لا تطلق لحيتك فيقول: هذه رجعية، أو تقول له مثلاً: لماذا لا تلبس زوجتك جلباباً شرعياً فيقول: هذه رجعية، فإن قائل هذا القول يخرج من الإسلام، ويفسخ العقد بينه وبين زوجته فوراً، فإن عاشرها فهو زنى وأولاده أولاد زنى.

وباختصار.. فكل من سخر أو لمز أو همز برسول الله ﷺ، أو لمز أو سخر بآية أو حكم من أحكام القرآن، فهو خارج من الإسلام، وكل من غمز أو همز أو لمز بمسلم - لدينه- أو لمز وسخر من لحيته أو من فعل سنة من السنن الثابتة أو بلباس امرأة مسلمة، فهو خارج من الإسلام، أما إذا كان اللمز والغمز بشخص إنسان، ولا يقصد الغمز والهمز واللمز لفعل الأمور الشرعية والسنن النبوية، فهذا لا يعتبر خروجاً من الإسلام، لكنه آثم[2].

1) (الصارم المسلول على شاتم الرسول ص 3-4، بتصرف واختصار)

2) وينبغي أن يكون معلوماً أن قضية تكفير الأفراد أو الأعيان – بسبب الأفعال أو الأقوال – ليس من اختصاص الفرد بل من اختصاص القضاء الإسلامي.

ولا ينبغي لكل جاهل أن يقحم نفسه في مسألة التكفير، بل هي مسألة منوطة بالعلماء المتخصصين والقضاء الإسلامي، يُحكم فيها وفق شروط وضوابط شرعية.

الأساس الخامس: عدم العجب والكبر والغرور[1]

قال رسول الله ﷺ: (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرِيَاءَ)[2] وفي حديث آخر (تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ ، فَقَالَتِ النَّارُ : أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ : مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ ؟ - زاد في رواية مسلم: وَغِرَّتُهُمْ - فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ : أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابٌ أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي)[3]، وحين تترفع على إنسان مسكين تذكَّر حديث الرسول ﷺ: (كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ مِنْهُمْ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ)[4]، فهذا (البراء) رضي الله عنه كان إذا اشتدت الحرب وحمي الوطيس واحمرت الحدق ودارت الدائرة على المسلمين، يأتون إلى البراء بن مالك ويقولون له: يا براء أنت الذي قال فيك الرسول ﷺ: (رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره) فينظر إلى السماء ويشير بإصبعه ويقسم على الله ليهزمن القوم... أقسمت عليك إلا منحتنا أكتافهم، فلا يرد يديه إلى الأرض حتى تبدأ هزيمة الأعداء. هؤلاء البسطاء المدفوعون بالأبواب، هم الذين يحمون المجتمعات من الدمار والزلازل الإلهية، والعذاب الرباني، وفي الأثر: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْأَبْرَارَ الْأَتْقِيَاءَ الْأَخْفِيَاءَ ، الَّذِينَ إِنْ

---

1) المراجع:
1- في التربية الجهادية والبناء ج1.
2- موسوعة الذخائر العظام ج3/ 10، 1072.

2) (مسلم، برقم 93/91،1)

3) (البخاري، برقم 138/4850،6. مسلم، برقم 2187/2846،4).

4) (الترمذي، برقم 175/3854،6)

غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا ، وَإِنْ حَضَرُوا لَمْ يُعْرَفُوا ، قُلُوبُهُمْ مَصَابِيحُ الْهُدى ، يَخْرُجُونَ مِنْ كُلِّ غَبْرَاءَ مُظْلِمَةٍ)[1].

وهناك حديث رواه البخاري ﷺ عبرة للمتكبرين، الذين يرون أنفسهم خيراً من الآخرين، وموعظة للذين يحتقرون الفقراء والبسطاء والضعفاء الذين لا يملكون من حطام الدنيا شيئاً، ليدركوا بأن الذي تزدريه عيونهم ربما يكون خيراً منهم، فلا يتعالى ولا يتكبر أحد على من تزدريه عينه. روى البخاري: (مَرّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ، فَقَالَ لرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٍ مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ هَذَا وَاللَّه حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ قَالَ فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّه ﷺ ثُمّ مَرّ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ: مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّه هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَّعَ وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا)[2]، والرجلان ظاهرهما الإسلام، ولكن الفرق بينهما كبير جداً، (هذا خير من ملء الأرض من هذا)، ولا يوجد شيء أفضل من ملء الأرض من جنسه سوى الإنسان، بل لا يوجد شيء أفضل من ألف شيء من جنسه سوى الإنسان.

فلن تجد فرساً أفضل من ألف فرس، ولا بعير أفضل من ألف بعير، ولا حمار أفضل من ألف حمار.. ولكن الإنسان قد يعدل ملء الأرض من مثله ومن جنسه. إذن فلا ينبغي للإنسان أن يتكبر أو يصيبه الغرور؛ لأن المعصية بالغرور قد لا تغفر، بينما

1) (المستدرك للحاكم، برقم44/4،1).
2) (البخاري، برقم 95/6447،8)

المعصية بالشهوات والذنوب الأخرى قد تغفر. فهذا إبليس عصى الله سبحانه بغروره فلم يغفر الله له، بينما آدم عصى الله بشهوة فغفر له، وفي الصحيح: (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ)[1]، والإنسان يجب أن ينظر إلى عيوب نفسه قبل أن ينظر إلى عيوب الآخرين، ويعدد عيوبه ونقائصه قبل أن يحصي عيوب ونقائص الناس الآخرين ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[2].

ومن قواصم الظهر، العجب بالأعمال الصالحة التي يقدمها من طاعات وأفعال، وهذا أخشى ما يخشاه الإنسان على عمله، أن يدخل العجب بما يقدمه من طاعات وأفعال إلى نفسه، فيتحول عمله إلى رياء وعجب والعياذ بالله، فيحبط عمله. وقد يقدم الإنسان أعظم الأعمال والعبادات، مثل الجهاد في سبيل الله، ثم يتسلل العجب والغرور إلى قلبه فيبطل عمله كله.

إن الغرور والعجب بالنفس ومعطياته لا تنبع إلا ممن يحتقر من حوله ويستصغرهم، بل ويسخر منهم، حتى لا يكاد يرى من حوله من كبره وغروره.

والسخرية بالآخرين لا تكون من الصغار إلى الكبار، بل تصدر – ممن يظنون أنفسهم كباراً -، وهي ناتجة عن شعور بالغرور والكبر وازدراء الآخرين. فالصغار لا يسخرون من الملوك – مثلاً -، بل السخرية تأتي من الكبار أو يظنون أنهم كبار إلى الصغار، لما يشعرون من التفوق عليهم في أمر من الأمور، حتى لو كان وهماً. فكثير من الناس من شدة مرض العجب والغرور عنده يصل به الأمر أن يتخيل خيالات توحي إليه نفسه بأنه كبير والناس من حوله لا يقدرونه حق التقدير. فلماذا يترفع الإنسان على الآخرين، ولماذا يعيبهم، ولماذا يتكبر عليهم؟ وهو يعرف حقيقة نفسه وعيوبه؟ ﴿كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾[3] .

---

1) (مسلم، برقم 93/91،1).

2) (سورة الحجرات: ١١).

3) (سورة المعارج: ٣٩).

الأساس السادس: الصدق مع الله في الأقوال والأفعال، أو (استواء الظاهر مع السرائر)[1]

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[2]، والصدق المقصود في الآية الكريمة، مطابقة الأمر للواقع والحقيقة، أو الأمور المعلنة. فلو فتحت صدر الإنسان الصادق، وأعطاك الله الاطلاع على قلبه لما وجدت هناك اختلافاً بين الصحيفة المعلنة وبين السريرة المخبأة، وهذا حال الصادقين، بل إن سريرته أفضل من ظاهره. وكان السلف رضوان الله عليهم يقولون: اللهم اجعل باطننا خيراً من ظاهرنا، واجعل ظاهرنا خيراً، والمهم هنا النية الصادقة الصافية (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى)[3].

وفي الناس ثلاثة أصناف من البشر، إن أخلصوا نياتهم وصدقوا في أعمالهم سيغيرون المجتمعات، فهم محور تغيير المجتمعات، وهم (العالم، الكريم، المجاهد)، والمجتمع بعمومه يدور حول هؤلاء؛ لأنهم قاعدة المجتمع وركيزته. إن هؤلاء الأصناف الثلاثة يحملون بصلابة كواهلهم كل المجتمع، فإن صدقوا وأخلصوا يصبح المجتمع طاهراً نقياً متماسكاً، وإن ساءت نواياهم وفسدت طوياتهم، تحول المجتمع كله إلى ركام من القمامة؛ لأن القلوب كالفاكهة أو الزهرة، فإن كانت الفاكهة نقية ناضجة فهي لا تعبق

---

1) **المراجع:**
1- في التربية الجهادية والبناء ج1، ج6.
2- في ظلال سورة التوبة.
3- موسوعة الذخائر العظام ج3/ 430، 576، 1086.
4- العقيدة وأثرها في بناء الجيل.

2) (سورة التوبة: ١١٩)

3) (البخاري، برقم1، 6/1).

إلا عطراً، ولا تعطي إلا لذة وحلاوة، وإن فسدت، فحينها تبدأ الروائح الكريهة تنتشر وتؤذي المجتمع كله من فسادها، بالنميمة والغيبة والريبة والظن السيء وغير ذلك من المفاسد والأمراض، وبالتالي تحول المجتمع كله إلى مجتمع متنافر متدابر، كل آخذ بأنفه حتى لا يشم الرائحة من جاره أو ممن يقاربه. ولذلك هؤلاء الثلاثة أصناف من الناس حذر من فسادهم الرسول ﷺ كما جاء في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ)[1] ، وعندما سمع معاوية رضي الله عنه هذا الحديث من أبي هريرة بكى حتى اخضلت لحيته، ثم أغمي عليه.. فلما أفاق معاوية قال: صدق رسول الله ﷺ، يقول الله سبحانه: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ

1) (مسلم، برقم 1905، 1513/3)

مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[1]، والحق أن هذه الآية أخوف آية أمر عليها في كتاب الله.

ومن نعم الله ﷻ أن هذه القلوب تتعامل مع رب العالمين علام الغيوب، والسرائر لا تبقى مخفاة طويلاً، وهي تفترق مع الظاهر أحياناً، ولكنها لا تطيق إلا أن تتطابق بعد فترة، فإذا كانت سريرته خيراً لا بد أن يظهرها الله سبحانه، وإن كان باطنه شريراً لا بد أن يظهره الله ولو بعد حين، وما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله ﷻ على فلتات لسانه وعلى قسمات وجهه، ويستحيل أن يبقى الإنسان مخادعاً لنفسه طويلاً؛ لأنها فطرة فطر الله الناس عليها، وهي سن إلهية أن تنطبق الظواهر مع البواطن، فإذا افترق خط الظاهر مع خط الباطن لفترة، بنفاق أو كذب أو رياء أو غير ذلك، فإن هذا الحال لا يستقيم طويلاً؛ لأن النفس قد فطرها الله سبحانه على أن لا تتقبل الباطل طويلاً، ولا تطيق المداهنة أمداً بعيداً.

كل فطرة وكل قلب يحب أن يعود إلى فطرته التي فطر عليها ﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗ ﴾[2]، ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ ﴾[3].

ومن هنا فالفطرة الحقيقية التي صبغها الله وخلقها بيده سبحانه، لا تطيق الزور والبهتان، ولا تطيق الكذب لزمن طويل. فإذا تعرضت لهزة من الهزات – بتذكير أو

1) (سورة هود: ١٥ – ١٦)
2) (سورة البقرة: ١٣٨)
3) (سورة الروم: ٣٠).

موعظة من الدعاة، أو بسماع آية قرآنية – تجد هذه الفطرة تنتفض وتهتز، وينتفض عنها ركام الواقع وركام الزور والبهتان والباطل، ثم تنطق بالحقيقة. وعلى سبيل المثال، فقد تتعرض لظلم أو كذب أو افتراء عليك من قبل آثم، أو يخطط ضدك، وأمام صبرك الطويل عليه، تجد فطرته تنتفض فيعبر عن ندمه وخطئه، إما بدموع هتانة بين يديك، أو بتوبة صادقة من نفسه على يديك، فيفتح الله لك قلبه الذي لم يطق الباطل والبهتان طويلاً ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾[1].

فلا ينفع من الأعمال إلا - كما قال الفضيل بن عياض عندما سئل عن الأعمال -، فقال: (أصوبه وأخلصه) ويعني بأصوبه، أي موافقته لرسول الله ﷺ، وأخلصه، أي أصدقه وأخلصه من الرياء. وبدون الصدق لن يستقيم لنا أمر، ولن تصلب لنا قناة، ولن نستمر على ثبات، ومآلنا إلى تمزق وشتات.

وكم رأينا من الناس كانوا من أقوى الخطباء في بيانهم، وقد أوتوا جوامع الكلم، وكان يعجب الناس منهم لحن القول، فيتجمعون حولهم، لكنهم يقولون ما ليس في قلوبهم، فكنت أحس في أعماق قلبي أن هذا الأمر لن يطول لهم، ولن يستقيم طويلاً؛ لأن الله سبحانه هو الذي أخبرنا بأن الزبد إلى زوال، ولن يمكث في الأرض ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾[2]، فلن يعيش في الأرض طويلاً إلا الحق، ولن يستمر إلا الحق وما نبت منه، والخبيث ليس له جذور في أرض الواقع، وليس له استدامة في الحياة ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا

1) (سورة الرعد: ١٧).
2) (سورة الرعد: ١٧).

ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾[1]، وتمضي الأيام لتثبت لنا ما كانت تحدثني به نفسي بأن مآل هؤلاء – الذين يقولون ما ليس في قلوبهم – إلى زبد وزوال وغثاء، فيزولوا ويتواروا من أمام الناس، فيصدق بهم قانون الله وسنته في الحياة – وبهبة ريح – ويحول أعمالهم إلى هباء وفقاعات.

يجب أن تكون هذه الحقيقة ثابتة في نفوسنا بأن الخبث لا يستطيع أن يتماشى مع الفطرة الإنسانية، ولا يستطيع أن يضرب جذوره في القلوب البشرية، إنه طارئ ويبقى مؤقتاً، سرعان ما يزول، كما تزول البثور عن الجلد إذا ظهرت، فهي عبارة عن دمامل وقروح سرعان ما يتغلب عليها الجسد وتزول من فوق البشرة. وأما الحق فإنه ثابت عميق مستمر إلى أن نلقى الله الحق سبحانه، والسبب أن الله هو الحق، ولا ينصر إلا الحق، ولا يقر إلا الحق، ولا يديم إلا الحق، ودينه هو الحق﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾[2]، ومهما رأينا الباطل ينتفش ويتمدد ويظهر بأعين الناس، فإن مآله إلى زوال واندثار ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾[3].

1) (سورة إبراهيم: ٢٤ - ٢٦)
2) (سورة الحج:٦٢).
3) (سورة المائدة: ١٠٠).

ولقد كان السلف رضوان الله عليهم حريصين على الحق وإن كان مراً، حريصين على الصدق وإن كان ثقيلا، حريصين على مطابقة الظواهر مع البواطن وإن كان من أحمز الأمور وأشقها على النفوس، حريصين على إخفاء أعمالهم وبقائها بينهم وبين الله لا يطلع عليها أحد من الناس، فإذا اكتشف الناس عبادة أحدهم أسرع ليفارق مكانه ويختفي. ولقد كان الإمام أحمد ﷺ إذا مر في الشارع يسير بين الحمالين حتى لا يشار إليه بالبنان، فيظنه الناس حمالاً شيالاً.

وقصة صاحب النقب مشهورة، يوم أن حاصر مسلمة بن عبد الملك حصناً من الحصون فترة طويلة، وذات ليلة انسل أحد المجاهدين وتسلق سور الحصن، ونزل على الحراس، وقتل الحارس وفتح نقباً في السور، ودخل الجيش الإسلامي وفتح الحصن...! ونادى مسلمة طويلاً: أيكم صاحب النقب؟ فلم يتقدم إليه أحد، وذات ليلة إذا بفارس ملثم يدخل خيمة مسلمة ويقول: أتحب أن تعرف صاحب النقب؟ قال: نعم، قال: بشرط أن لا تذكر اسمه لأحد وأن لا تثيبه ولا تجازيه، قال: نعم، قال: أنا صاحب النقب، ولم يذكر اسمه ثم فر هارباً، فكان بعدها مسلمة كلما توجه إلى القبلة بالدعاء يقول: اللهم احشرني مع صاحب النقب.

هذه النفوس الصادقة والنماذج الرفيعة، هي التي كانت تحفظ المجتمع المسلم من الانهيار ...ويوم أن كانت الشهوات تتسلط على الأمراء وعلى الحكام، كان الذي يحفظ هذا المجتمع من الانهيار ويحفظ الأرض من الاهتزاز، ويحفظ الناس من التمزقات والشتات..! هذه النماذج الرفيعة التي بقيت طيلة التاريخ الإسلامي منبثة وبنسب قد تقل وقد تكثر. وهي بمثابة أعمدة البقاء لهذا البنيان الذي يسمى (المجتمع المسلم)،هذه الأعمدة قد تكون قليلة، ولكنها تمسك بنياناً ضخماً من فوقها .وكلما خلا

المجتمع من هؤلاء الصادقين، الذين سماهم رسول الله ﷺ: (الأخفياء الأتقياء الأبرياء)كلما بدأ المجتمع يتآكل وينهار ويتشتت ويتمزق، ولذا فليست مشكلة الإسلام اليوم سوى قلة الصادقين بين العاملين، سوى قلة الأخفياء الأتقياء الأبرياء الذين يتصدرون قيادة الأمم، ويتصدرون قيادة السفينة، فإذا أمسكت السفينةَ يدٌ صادقة قادتها إلى شاطئ السلامة بشراع الأمان وبيد القوي الأمين (الذين إذا حضروا لم يعرفوا وإذا غابوا لم يفتقدوا)، لقد غابت ملامح وجوههم وراء غبار المعركة، وغطى صليل السلاح وقذائف الطائرات والدبابات على مسامعهم فلا تسمع الغثاء واللغو، وليس عندهم وقت لاستماع غيبة أو نميمة أو ريبة أو تجسس، فالأمر أعظم من ذلك، والأمر أكبر من أن يلتفت إلى نقيق الضفادع، أو نعيب الغربان؛ لأن الآخرة تشغل حياتهم، ورقابة الله تكف أنظارهم عن كل شيء، وهم ينظرون إلى الدنيا من قمم عالية، وما أصغر الدنيا للذين يحلقون في أجواء السماء ..!! إن أرض المطار كبيرة في نظر ركاب الطائرة وهم على الأرض، فإذا غادرت الطائرة أرض المطار أخذت العمارات الشاهقة تختفي تدريجياً، ثم تختفي نهائياً، إلى أن تختفي معالم الأرض حين تحلق في جو السماء، ولذا لم يبق لك في الأرض شيء تتعلق به أو ترتبط به، هكذا كان السلف وكان الصادقون والصالحون من بعدهم.

وهناك مثل أعلى آخر – في هذا السياق، وهو موقف (سعيد الحلبي) أمام إبراهيم باشا – وهو صاحب الهيلمان والسلطان – عندما دخل إلى المسجد والشيخ سعيد جالس مادا رجله، ووقف إبراهيم باشا طويلاً أمام هذا الرجل الذي لم يهتز ولم يتحرك ولم يقبض رجله، وخرج وهو يغلي غيظاً واشتاط غضباً، فأخذ صرة من النقود وقال لحاجبه إدفعها لهذا الشيخ، فعندما جاءه قال له الشيخ سعيد: قل لسيدك: إن الذي يمد رجله لا يمد يده ...!!موقف عجيب وثبات غريب أمام الإغراءات.

ومن الأمثلة المميزة على صدق المواقف والثبات ، ابن تيمية ، وسيد قطب:

في زمن ابن تيمية أفتى بعض الفتاوى، فقام الحكام ووضعوه على جمل طافوا به في شوارع المدينة، وأغرو به الصبيان والسفاء، وتبعوه يطقطقون وراءه، ويصفقون ويهزؤون، وألقي ابن تيمية في السجن. يقول ابن تيمية في الفتاوى: لقد كنت أتفقد بعض الأسر قبل أن ألقى في السجن، فلما سجنت انقطعت المعونات عن الفقراء المحتاجين، وكنت متألما لهذا، وتفاجأت بأن الأخبار تأتيني إلى السجن بأنك تأتينا بنفسك وشكلك، وتعطينا نفس ما كنت تعطي، ثم قال: إن إخواننا من الجن يقومون مقامنا...!!

ويقول ابن تيمية: (ماذا يصنع فيّ أعدائي: إن جنتي وبستاني في صدري لا يفارقني، إن سجني خلوة وقتلي شهادة ونفيي سياحة، ولو أعطيت من سجنني ملء هذه القلعة ذهباً ما وفيتهم الحق الذي أعطاني الله إياه) ومات ابن تيمية، بعد أن قطع عنه القلم والورق في سجنه، وأحرقت كتبه، وكان يمسك بعض الحجارة الملقاة على أرض السجن ويكتب على الجدران، ثم نقلت بعض كتبه عن الجدران. بعد أن ظن الطغاة أنهم أطفأوا نور علم هذا العالم. ويدور الزمان دورته -بعد قرون عديدة- يقوم علماء ممن تربوا على كتبه في الجزيرة العربية، حيث أظهر الله فيها البترول، ومن هذه الأموال الضخمة، قاموا وطبعوا كتبه ونشرت في شتى بقاع الأرض، فلا تكاد مكتبة إسلامية في العالم تخلو من كتب ابن تيمية. إنه الصدق العجيب الذي يفجره الله سبحانه ذكراً حسناً في الأرض وترحيباً في السماء.

ومثال آخر: (سيد قطب)، الذي عرضت عليه عدة مناصب عالية في الدولة فركلها بقدمه، وفضل السجن والتعذيب، وبالتالي الإعدام، وكان يردد: إن إصبعي السبابة التي

تشهد لله بالوحدانية في الصلاة لترفض أن تكتب حرفاً واحداً تقر به حكم طاغية. وبعد أن وقع (عبد الناصر) قرار الإعدام، جاء مدير السجن الحربي (حمزة البسيوني) إلى أخته (حميدة)، فقال لها: أمامنا فرصة واحدة لإنقاذ الأستاذ سيد، وهو أن يسترحم ويعتذر عن كتاباته، فإن اعتذر واسترحم فسيخفف عنه حكم الإعدام إلى السجن لمدة ستة أشهر، ثم يخرج بعفو صحي. فهرعت حميدة لتعرض على سيد هذا العرض، فقال سيد: عن أي شيء أعتذر يا حميدة؟! عن العمل مع الله؟!! والله لو كنت أعمل مع غير الله لاعتذرت، ولكني لن أعتذر عن العمل مع الله. واطمئني يا حميدة، إن كان العمر قد انتهى، فسينفذ حكم الإعدام، ولن يغني الاعتذار شيئاً، وإن كان في العمر بقية فلن ينفذ حكم الإعدام...!!

وأثناء اقتياده إلى ساحة الإعدام لحق به أحد علماء الطواغيت وذنب من أذناب الطاغية، وقال: يا سيد.. قل لا إله إلا الله محمد رسول الله...!! فنظر إليه وقال: جئت لتكمل المسرحية، نحن نعدم من أجل لا إله إلا الله، وأنتم تأكلون الخبز بلا إله إلا الله...!! وأعدم سيد في أعماق سجن الاستئناف، ولا يعرف حتى الآن أين قبره...!! وفي حياة سيد قطب لم يطبع كتاب (في ظلال القرآن) إلا طبعة واحدة، وبعد استشهاده في سنة واحدة طبع سبع مرات...!!

ونحن نعيش تجربة الجهاد الأفغاني، الذي بدأها صفوة من الشباب الأطهار، هؤلاء بدأوا جهادهم بمسدس واحد.. وبهذه المحاولات الصادقة فجر الله بها هذا الجهاد الضخم الذي حرك العالم كله.

إن الله سبحانه يصنع بالنيات الصادقة الطيبة وبالقلوب الصادقة المعجزات...!! فاصدقوا الله يصدقكم.. وانصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم.!!

ولقد ضرب لنا علماؤنا الصادقون أروع الأمثلة في الصدق والورع، حتى نقلوا عن (النووي) أنه مكث وعاش في الشام ومات فيها، ولم يذق في الشام ثمارها؛ لأنه كان يقول: هناك بساتين موقوفة قد ضاعت، وأخشى أن آكل مال الوقف، ففتح الله عليه من العلم حتى لا يكاد العقل يصدق أنه ألفها.

لقد نقل الذين كتبوا عن حياته أنه طفئ المصباح يوما لخلاص زيته منه، وإذا بإصبعه تنير فيكتب على نوره، كما حسبوا للنووي أنه كان يؤلف في اليوم (ملزمة)، وذلك لأن الورع يورث قوة في القلب، كما يورث العزة فيه. وعندما طلب (الظاهر بيبرس) فتوى لجمع الأموال لشراء السلاح للمجاهدين، أفتى علماء الشام بذلك إلا النووي، فعاتب الظاهر بيبرس النووي على هذا، فقال له: لقد جئتنا عبداً مملوكاً لا تملك من الدنيا شيئاً، وأنا أرى لك اليوم الغلمان والجواري والقصور والضياع، فهذه ليست أموالك، فيجب عليك أن تبيعها جميعاً وتردها لبيت المال، فإن احتجت بعد ذلك لشراء السلاح أنا أفتيك لتجمع المال من المسلمين، فرد عليه الظاهر بيبرس: إذن أخرج من الشام، فخرج النووي من الشام إلى (نوى)، وجاء العلماء إلى الظاهر بيبرس وقالوا: لا غنى عن (محي الدين النووي)، فقال: أرجعوه، فذهبوا إلى (نوى) في (حوران) وقالوا له: ارجع فقد سمح لك الظاهر بالعودة إلى الشام، فقال: والله لا أدخلها والظاهر فيها ...!! إنها العزة ... والرفعة...عزة العالم العامل الورع ... وذلك حين يترفع عن أبواب الحكام ...!! والقلب الورع قلب جسور... شجاع ...قوي ...عزيز ...!! أما قلوب أصحاب الشهوات والشبهات فهي قلوب ضعيفة... مريضة.. ترتجف لشرطي يمر في الشارع، تظنه يراقبها أو يكتب عنها تقريراً ليقدمها إلى جهات أمنية. وأخيراً بر الله سبحانه بقسم (النووي)، ولم يمض سوى شهر حتى مات (الظاهر)، وعاد النووي إلى الشام.

ومن صور -الصدق مع الله – عندما جاءت أخت (بشر الحافي) إلى الإمام أحمد، فقالت له: هل يجوز لي أن أغزل على نور الظالمين...؟! فقد كان الزعماء والكبراء في ذلك الوقت يضيئون أسرجة كبيرة ومصابيح عظيمة في بيوتهم، لتضيء المنطقة حولهم، فسألها الإمام أحمد عن نفسها، فقالت: أنا أخت بشر الحافي، فقال لها: لا تغزلي على ضوئهم، من بيتكم خرج الورع. ولذلك هذه النماذج القليلة هي التي حفظت الإسلام عبر العصور الإسلامية.

يا أيها الإخوة: لقد علمنا هذا الدين، وأثبت التاريخ لكل عاقل بأن للإخلاص والصدق سراً عجيباً في هذه الدنيا وفي الآخرة، فالحذر كل الحذر أن تتعاملوا بالمكر والدهاء، وأن تحبطوا أعمالكم وتفسدوا عليكم دنياكم وآخرتكم بالرياء والنفاق؛ لأنكم تتعاملون مع الله ﷻ، علام الغيوب، الذي يعلم السر وأخفى.

فإن كنت داعية إلى الله فاصدق مع الله، وإن كنت كاتباً فاصدق مع الله، وإن كنت حارساً فاصدق مع الله، وإن كنت مجاهداً فاصدق مع الله، وإن كنت موظفاً فاصدق مع الله.

انظر ماذا صنع الله سبحانه بصدق الرعيل الأول من الشباب في أفغانستان، من أبناء الحركة الإسلامية. ولقد حدثني بعض هؤلاء الشباب عن أول شهيد من هذا الرعيل الطيب، وهو (المهندس حبيب الرحمن) بأنه – من شدة إخلاصه وصدقه وتقواه -كان يسمع تسبيح الشجر والحجر...!!

وقالوا لي: أننا حين كنا في داخل سجون المجرمين زمن (داود) تحت التعذيب، كنا نقول ونحن داخل الزنازين المغلقة، نصرخ بداخلها، فتغلق الطرق حتى لا يسمع المارة

من الناس صراخنا، كنا نقول: هل يوجد أحد في الأرض يعلم حالنا، وهل يوجد بشر في الأرض يعلم بأن هناك فئة من المسلمين يعذبون من أجل الإسلام، وما كنا نظن أبداً أن تنتقل قضيتنا من قضية إقليمية ضيقة في أعماق سجون الظالمين، إلى قضية عالمية تهز العالم بأكمله، وتحسب لها الدول الكبرى ألف حساب...!! إنه الصدق، وكلمة الحق، والكلمة الطيبة التي يصنع الله بها الأعاجيب. إن الله سبحانه يصنع بالنيات الطيبة والمحاولات الصادقة والقلوب المخلصة المعجزات في واقع الأرض.

الأساس السابع: فهم القانون الرباني –قانون الجزاء– (الجزاء من جنس العمل)[1]

هذا القانون الإلهي الذي يقوم على العدل الرباني، مستوحى من كتاب الله، ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾[2]، ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ ﴾[3]، ﴿ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴾[4]، ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾[5].

كما أنه مستوحى من جملة السنة والآثار الواردة: قال رجل لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إننا نجد في التوراة، (من حفر حفرة لأخيه أوقعه الله فيها) قال: وإنها لفي القرآن ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦ ﴾[6].

وهذا من حكمة الله تعالى وعدله حين يعامل الناس بما يضمرون في مكنون ضمائرهم، وأنه يعاملهم بما تدخره صدورهم من سرائرهم، وبما تتوجه إليه نياتهم، حتى يتحقق العدل المطلق؛ لأن هذا العلم الشامل لا يصل إليه مخلوق على الإطلاق.

هذا القانون الرباني ثابت دائم لا يتغير ولا يتبدل ما دامت السماوات والأرض، فتجد أهل الدنيا ممن باعوا آخرتهم ليسعدوا في الدنيا، ويفرحوا بها ﴿ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا

---

1) المراجع:
1- في التربية الجهادية والبناء ج1
2- في خضم المعركة.
3- موسوعة الذخائر العظام ج780/1، ج932/3

2) (سورة البقرة: ١٥٢)
3) (سورة الحشر: ١٩)
4) (سورة الطارق: ١٥ - ١٦)
5) (سورة آل عمران: ٥٤)
6) (سورة فاطر: ٤٣).

﴿ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾[1]، وغرقوا في شهواتهم وملذاتهم، جرياً وراء المتاع الهابط، والسعادة الوهمية، نجد أن هؤلاء عاقبهم الله بهذا القانون الرباني (الجزاء من جنس العمل)..!!

فرغم أن الدنيا بين أيديهم وأسباب السعادة في متناولها، إلا أن الله سبحانه يعاقبهم -وفق هذا القانون- فيسلب السعادة من قلوبهم، ويلبسهم الشقاء والتعاسة، ويسيطر عليهم الهم والقلق والاضطراب، فيحرمهم من الشيء الذي كانوا يجرون خلفه وهو السعادة والمتعة والراحة النفسية...!! ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾[2]، ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[3]، ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾[4]، وبالمقابل أهل الصلاح والخير والدين والأعمال الصالحة، ومن تركوا المعاصي والشهوات الهابطة من أجل الله، نجد بأن الله سبحانه كافأهم -وفق هذا القانون- وجزاهم بما صبروا بسعادة قلبية وروحية لا تدانيها سعادة، ولذة قلبية لا

1) (سورة الرعد: ٢٦)
2) (سورة طه: ١٢٣ – ١٢٤)
3) (سورة الأنعام: ١٢٥)
4) (سورة التوبة: ٥٥)

تدانيها لذة مادية، حتى لو كان يعمل في الأعمال الشاقة، أو يقوم بجهود ضخمة، وحتى لو كان في السجن مأسوراً، أو كان في الحرب وتعبها ونصبها، وقد لا يجد قوتا يقتات به، وقد تراه حافي القدمين، عاري الرأس، أغبر أشعث الشعر، إلا أن السعادة لا تفارق قلبه والعزة لا تفارق نفسه... فقد كل الدنيا، لكنه لم يفقد نفسه ولم يفقد قلبه ..وكيف يفقد قلبه ونفسه من وجد ربه سبحانه..؟! ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾[1].

أقوال العلماء في (قانون الجزاء):

ووفق هذا القانون الرباني، يعقد ابن القيم فصلاً في كتابه (الفوائد) يبين فيه كيف أن الله سبحانه يعاقب وفق هذا القانون بالمثل، فيقول: إن النظر إلى المحرمات يضعف العيون، والسرقة تضعف الأيادي، والمشي إلى الحرام يضعف الأرجل، وأكل الحرام يضعف البدن، يضعفها ضعفاً حسياً وليس ضعفا معنوياً فقط، وبالتالي فإن قوة البدن وقوة القلب تأتي من عمل الحسنات ومن مزاولة طرق الثواب، ووهن البدن وضعف القلوب تأتي من مخالفة علام الغيوب، وذلك طبيعي حسب القانون الإلهي.

يقول ابن تيمية: (إن في الدنيا جنة من لا يدخلها لا يدخل جنة الآخرة)، جنة الأنس بالله والسعادة بالصلة به، فلا يصل المرؤ إلى جنة الآخرة إلا من خلال جنة الدنيا هذه، وهي رياض الصالحين فيها متعة المتقين. ومفهوم كلام ابن تيمية أن من ترك الشهوات

1) (سورة مريم: ٩٦)

والملذات والمتع المحرمة أبدله الله مكانها لذة وسعادة ومتعة قلبية لا تدانيها متع الدنيا. فجزاه الله مقابل ترك السعادة بالحرام سعادةً في قلبه خيراً منها.

ويقول ابن عباس: (إن للحسنة نوراً في القلب وضياءَ في الوجه وقوة في البدن وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة ظلمة في القلب، وسواداً في الوجه، ووهناً في البدن، وضيقاً في الرزق وبغضاً في قلوب الناس). فلنتأمل كلام ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، نجدُ تفسيرَ هذا القانونِ الرباني واضحاً، فأهل الدنيا يقتحمون المعاصي ويخالفون أمر الله سبحانه من أجل السعادة القلبية وبالمقابل يعاقبهم الله فيقذف في قلوبهم ظلمة تتبدد معها كل راحة وسعادة وتنقلب إلى عمى وضلال وشقاء.

وأهل الدنيا يخالفون أمر الله ليوسعوا عليهم الرزق، فيعاقبهم الله ويضيق عليهم أرزاقهم. وأهل الدنيا يرتكبون المعاصي لتغذية أجسادهم وتقويتها، فيعاقبهم الله بوهن البدن وإضعافها.

وهكذا نجد هذا القانون يتسع في تعامل الله سبحانه مع خلقه، حتى يشمل نواحي كثيرة في حياتهم، فاقرأ قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾[1]، فتأمل كيف بدل الله عليهم -بسبب كفرهم- الجوع مكان الرزق الرغد، والخوف مكان الأمن.

1) (سورة النحل: ١١٢)

وقوله تعالى:﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾[1]، ويظهر قانون الجزاء بوضوح في هذه الآيات لا يحتاج إلى تفسير أو تبيين.

قانون الجزاء في الأحاديث النبوية:

وأما من استعرض الأحاديث النبوية يجد قانون الجزاء واضحاً في كثير من الأحاديث، بالتصريح أحياناً، وبالتلميح أحياناً أخرى. وهناك العديد من الأحاديث تعتبر قواعد وقوانين وحدها في هذا السياق، وكل حديث منها بذاته يصلح أن يكون قاعدة يحتج به في هذا المجال:

ففي سياق النهي والتحذير من تتبع عورات الناس ومحاولة التماس الأخطاء والعثرات للآخرين، -ابتغاء العيب للبُرآء منهم- نجد الحديث النبوي المزلزل الذي يبين ترقب الله سبحانه بهم ومتابعته لمكرهم، وأن الله سبحانه لهم بالمرصاد كما يترصدون هم بعباد الله.

يقول رسول الله ﷺ (.... فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ)[2].

1) (سورة سبأ:١٥-١٧)

2) (الترمذي، برقم 446/2032،3)

وفي سياق النهي عن الرياء وحب الظهور والسمعة بين الناس، والتحذير الشديد من حب الظهور -الذي يقصم الظهور-، يقدم لنا الحديث النبوي الشريف قاعدة مستقلة في هذا المجال، ويبين لنا سنة ربانية جرياً على قاعدة (الجزاء من جنس العمل). (مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ)[1].

وفي مجال عقيدة الولاء لكل مسلم، ونصرته في الحق -حين يظلم-، يظهر لنا -ما نحن بصدده- وبوضوح، فيقدم لنا الحديث الشريف قاعدة مستقلة في وجوب نصرة المسلم إذا وقع عليه ظلم، والحذر كل الحذر من خذلان المسلمين. فتدبر معنى حديث النبي ﷺ في هذا السياق: (مَا مِنْ امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ إِلَّا خَذَلَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبَّ فِيهِ نُصْرَتَهُ وَمَا مِنْ امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إِلَّا نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبَّ نُصْرَتَهُ)[2]، ولا شك أن الحديث واضح كل الوضوح في تناسقه التام مع قاعدة (الجزاء من جنس العمل)، لا يحتاج إلى شرح أو بيان.

وأخيراً ألا يخشى – من يخذلون الشعب الأفغاني ويتقاعسون عن نصرته ورفع الظلم عنه – أن يصيبهم ويشملهم قانون الجزاء الرباني؟!!

وهل هؤلاء الخذولين في مأمن من هذا القانون الرباني؟!

إن عقيدة الولاء والبراء تقتضي أن تناصر المسلم وتواليه وتدافع عنه وعن داره وحرماته، وتجاهد لحماية أعراض المسلمين ودمائهم وأموالهم، وكل من لا يفعل ذلك فهو دليل على خلل في عقيدة الولاء والبراء، وخذلان للأخوة الإسلامية.

---

1) (البخاري، برقم 104/6499،8).

2) (أبو داود، برقم 4884، 271/4).

إن الذي يخذل مسلماً واحداً يصيبه هذا القانون، فكيف بمن يخذل شعباً بكامله؟!

إنني أخشى إن خذل المسلمون هذا الشعب، ولم يتقدموا لنصرته، أن لا يصحوا من منامهم إلا وجنود الكفر جاثمين على صدورهم في بلادهم، ليذوقوا جزاء خذلانهم لهذا الشعب.

لقد حذرنا أصحاب الجزيرة العربية أنه إن سقط الجهاد الأفغاني فإن (بلوشستان) مفتوحة أمام الجيش الأحمر، فهناك زعماء لقبائل فيها يتبنون الشيوعية، وينادون بفتح الطريق للجيش الروسي، لتصل وتدخل إلى المياه الدافئة وبحر العرب (فاليوم أفغانستان وغداً عربستان) ...!!

إن هذا القانون الرباني – قانون الجزاء - ليصل إلى النفس البشرية ومختلجاتها وظنونها، ويجازي الله سبحانه عبده بما يقابله، وبجنس العمل الذي يقوم به، ففي الحديث القدسي (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ)[1]، والله سبحانه لا يكتفي بأن يجازي الحسنة بمثلها، بل يزيد ويضاعف له العطاء، (وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً)[2].

ومن القواعد الفقهية التي استخلصها الفقهاء من (قانون الجزاء): (من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه).

أي يعاقب الإنسان على عمله من جنس فعله، وهذا من العدل الإلهي في العقوبة والجزاء.

---

1) (البخاري، برقم 121/7405،9).

2) (البخاري، برقم 121/7405،9).

الأساس الثامن: الحذر من قواصم الظهر الثلاث[1]

أولاً: حب الظهور والرئاسة والشرف (الشهوة الخفية):

قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2].

اتبع هواه ليرتفع ولكنه هوى مع الهوى، والهوى من الهوى وهو السقوط؛ لأن الروح تحاول أن ترتفع لتتصل بالملأ الأعلى، والطين يجذبها والشهوات فتنزلق في مستنقع الدنيا العفنة، وتهوي بها وتسقط لتتلبط.

وحرص الإنسان على الدنيا والعلو فيها مهلكة له، ومزلقة خطيرة لا تبقي له دين، ففي الحديث الشريف: (مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ)[3]، والحرص على الشرف والعلو في الدنيا آفة من أخطر الآفات، ومن خلال تجاربنا في الحياة وجدنا أن الزهد في طلب الرئاسة والعلو في الدنيا

---

1) المراجع:
1- في التربية الجهادية والبناء ج3.
2- موسوعة الذخائر العظام ج1072/3، 845.
3- في ظلال سورة التوبة.
4- السرطان الأحمر.

2) (سورة الأعراف: ١٧٥ – ١٧٦).

3) (الترمذي، برقم 166/2376،4).

– بين الناس - أقل بكثير من زهدهم في المال، فكم من زاهد في المال يعيش عيش الفقراء، ومع ذلك تجده حريصاً كل الحرص على طلب الرئاسة والعلو في الأرض، ومع الأسف الشديد فقد رأينا كثيراً من المسلمين الأتقياء الصالحين يقطع الأرحام من أجل العلو في الأرض ويقطع الصلة بإخوانه الذين عاش معهم ردحاً من الزمن يتبادلون المودة والمحبة إذا تعارضت مع أهوائه ورئاسته وعلوه في الأرض، بل هو على استعداد أن يرمي إخوانه بكل تهمة وكل عار وكل نقيصة؛ لأنهم قالوا كلمة حقٍّ تتعارض مع رئاسته، بينما كانوا من قبل هذا من أحب الناس إليه، ومن أكثر الناس مودة لهم. ففي الأمس كانوا من المقربين ويصفهم بأنهم من خيرة البشر، فلما وقفوا في وجه هواه انقلبت الصورة عنده، فكانوا من شرار الخلق في نظره، حين خالفوا هواه ومصالحه التي يعلو بها بين الناس، انتصاراً لهواه. بل لا مانع لديه أن يتحالف ويتعاون مع الظالمين؛ ليتخلص من إخوانه الذين يخالفون هواه وزعامته. قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴾[1].

والحرص على الشرف يكون كذلك من ناحيتين، إما حب رئاسة الدنيا، وإما طلب الدنيا بالدين، أو بعبارة أدق: إمّا حُبّ رئاسة الدنيا بوسائل دنيوية، وإما حب رئاسة الدنيا بوسائل أخروية. فمثلاً: حب الدنيا بوسائل الدنيا أن تحرص على الإمارة ببذل المال، أو بذل الجاه، أو غير ذلك من أجل الجاه أو العلو والشرف والمنزلة الرفيعة في نظر الغافلين. فهذه المنزلة التي يلهثون وراءها منزلة السافلين، وهي دركة من دركات الهابطين، بل هي دركة تؤدي بصاحبها إلى جهنم، وفئة أخرى تجدهم يطلبون الدنيا

1) (سورة مريم: ٨١).

والعلو والشرف عن طريق الدين أو يطلبونها عن طريق العلم، أو حتى عن طريق الجهاد والنفقة، فيطلب الدنيا بإهلاك الآخرة.

عن عبد الرحمن بن سمرة ﷺ، قال: قال لي النبي ﷺ: (يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ لَا تَسْأَلْ الْإِمَارَةَ فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا)[1]، وفي البخاري عن رسول الله ﷺ: (إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الْإِمَارَةِ وَسَتَكُونُ نَدَامَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَنِعْمَ الْمُرْضِعَةُ وَبِئْسَتْ الْفَاطِمَةُ)[2]؛ لأن الرضاع من الحليب طيب وحلو، بينما الفطام عن الحليب مر وصعب على النفوس، وما أصعب وما أشد الفطام عن الشرف والرفعة والعلو في الدنيا..!! وكم رأينا من الناس يصابون بانهيارات عصبية عندما يتفاجأ أحدهم بإقالته من منصبه، وقد كان صاحب المعالي في الصباح، وفي الضحى يصبح كوماً رميماً في داخل بيته، لا ينظر إليه ناظر، ولا يسلم عليه مار...!!

أما طلب الدنيا والشرف والعلو ببذل الدين، فقد جاء في الحديث: (مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنْ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[3]، أي: لم يشم رائحتها (وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ سَبْعِينَ خَرِيفًا)[4]، وفي رواية أخرى: (مَنْ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ وَيُجَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ وَيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ جَهَنَّمَ)[5]، وأعظم من هذا من يبذلون أرواحهم أو يخاطرون بأنفسهم من أجل الشرف والعلو في الدنيا، يقاتلون ويبذلون أرواحهم وفي

1) (البخاري، برقم 7146، 63/9).
2) (البخاري، برقم 7148، 63/9)
3) (ابن ماجة، برقم 252، 92/1)
4) (الترمذي، برقم 1403، 72/3)
5) (ابن ماجة، برقم 260، 96/1).

المعركة من أجرأ الناس، ليقال: جريء ...!! وفي الصحيح: (قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ)[1]، ورغم أن الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام، وفيه الأجر العظيم والمكانة العالية عند الله، إلا أن الحرص فيه على الشرف والعلو والحرص على السمعة والشهرة، يحول جهاد الإنسان من هذا الأجر العظيم إلى ركام من الآثام والوزر والعياذ بالله. ففي الحديث الصحيح: (الْغَزْوُ غَزْوَانِ فَأَمَّا مَنْ ابْتَغَى وَجْهَ اللَّهِ وَأَطَاعَ الْإِمَامَ وَأَنْفَقَ الْكَرِيمَةَ وَيَاسَرَ الشَّرِيكَ وَاجْتَنَبَ الْفَسَادَ فَإِنَّ نَوْمَهُ وَنُبْهَهُ أَجْرٌ كُلُّهُ وَأَمَّا مَنْ غَزَا فَخْرًا وَرِيَاءً وَسُمْعَةً وَعَصَى الْإِمَامَ وَأَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ فَإِنَّهُ لَمْ يَرْجِعْ بِالْكَفَافِ)[2]، رجع مأزوراً غير مأجور، فالذي أفسد عمله أنه خرج من أجل الشرف والعلو والشهرة، كما أنه عصى الأمير أنفة وعلواً وتكبراً على طاعته.

والحق أنه – من خلال خبرتي وتجربتيى- أن أعظم خطر على النفس هو شهوة العلو في الأرض، شهوة السلطان، شهوة الكبر والظهور، وكم قصم الظهور من الظهور. لأن أخطر ما يهجم على القلب البشري هو شهوة السلطان، ولقد رأيتها لدى المسلمين ولدى الكافرين من أخطر الشهوات التي مزقت الأمم والجماعات، وكم من جمع كان قد ائتلف فرقه حب الظهور والسيادة، وكم من مجموعة كريمة شتتها أهواء فرد واحد يريد أن يتسلط عليهم بغير حق. هذا على مستوى دون مستوى السلطان بكثير، فكيف إذا وصل الأمر أن يتجمع بين يدي فرد واحد (السلطان والمال) جميعاً، وتصبح لقمة الناس كلها بين يديه، يحرم من يشاء ويمنع من يشاء...؟!! هنا تصبح الفتنة الكبرى لنفس السلطان والفتنة الكبرى لضعاف النفوس. إن هذه الشهوة العارمة – شهوة

1) (مسلم، برقم 1513/1905،3).

2) (أبو داود، برقم 2515، 13/3)

السلطان - جعلت بعض الناس يدعون الألوهية في الأرض...!! وهؤلاء الذين يتسلطون على رقاب الناس ليصل بهم الأمر من خلال النفخ الإعلامي بالحاكم (القزم الصغير) حتى يجعلوا منه عملاقا ليحل محل الإله في الأرض، ولا يمكن أن يطاع أحد إلا بعد أن ينفخ نفخاً يشعر الناس أنه الرجل الذي يلهم، وإذا خطب خطاباً تبدأ الصحف تحلل الخطاب التاريخي أسابيع متتالية... ماذا احتوى من الحكم.. وماذا ضم من الفوائد.. وماذا خطط للأمة في مستقبلها، والله أعلم أن الحاكم أو الرئيس بريء من معرفة هذا عندما تكلم بهذا الخطاب...!!

وهؤلاء الطواغيت لا يمكن أن يطاعوا، ولا يمكن أن يعتلوا على أكتاف البشر إلا بخفة الشعب، ولا يمكن أن يتجرؤوا على ذبح الشعوب على أقدام نزواتهم وعلى مذابح شهواتهم إلا بأعمدة من أهل الباطل.. هذه الأعمدة شرذمة محسوبة على العلماء – من أجل الحفاظ على مناصبهم ومكاسبهم وشهرتهم- قدمت الفتاوى للطواغيت ذبح على أثرها خيرة العلماء والدعاة والمفكرين من الأمة.

ثانياً: الشبهات والظنون الفاسدة:

علاج الشبهات باليقين، واتقاء الشهوات بالصبر، فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين. أما علاج الشبهات، فقد قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ)[1]، فمجال الورع هو مجال الشبهات، والتقوى والورع بالنسبة للرجل إنما يعرفان

1) (مسلم، برقم 1291/1599،3).

عند الشبهات، فكلما كان التوقي مستمراً والحذر دائماً والمراقبة متواصلة، كلما كان الورع أرفع وأعلى، والورع أول ما يظهر في قضيتين: قضية حب الرئاسة وقضية المال.

فالشبهات والشهوات والظنون الفاسدة مهلكة للدين، وإن للورع مراحل، ومرحلته الأولى: هي الحذر من مناطق المباحات والشبهات، فلننتبه لها جيداً فإنها مناطق مزروعة بالألغام، فمن اتقاها فقد استبرأ لدينه وعرضه، ويمكن أن نشبهها بالثوب النظيف الذي ينبغي على الإنسان أن يحافظ على نقائه ولا يلطخه بالنجاسات عندما يكون في أرض نجسة، فمن اتقى الشبهات والشهوات فقد استبرأ لدينه واستبرأ لعرضه، ونقى قلبه، ولا ينقي القلب إلا إذا نقاه الإنسان من شبهاته وشهواته، وحينئذ يتحقق في الورع. كما أنه لا يمكن للإنسان أن يصبح إماماً في الدين إلا إذا اتقى الشبهات والشهوات. واتقاء الشبهات علاجه اليقين، واتقاء الشهوات علاجه الصبر، وبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[1]، فلا بد من اليقين الذي يطرد الشبهات، ولا ينبغي للمسلم أن يلغ لسانه في الشبهات، وعليه بالكلام اليقيني، وإذا تردد الأمر بين الخير والشر فليدع ما يريبه إلى ما لا يريبه، وليدع الشبهات حتى يرتقي إلى مقام الأئمة التقاة. وذلك لأن الإنسان كلما دخل في ساحة الشبهات والشهوات كلما ازدادت سيئاته، والسيئات تطفئ نور القلب، كما قال الإمام مالك للشافعي رحمهما الله عندما رآه أول مرة: يا غلام إني أرى أن الله قد ألقى على قلبك نوراً، فلا تطفئه بظلمة المعصية. وكما أن الشبهات والشهوات تطفئ نور القلب فكذلك تضعفه وتجعله مريضاً بمرض الشبهة أو الشهوة.

1) (سورة السجدة: ٢٤)

ثالثاً: عدم الطمع في حطام الدنيا على حساب الدين:

قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1]، كالكلب يلهث وراء الدنيا، ولهاثه عليها لا ينقطع، سواء كان مستريحاً أو كان تعباً، ويا له من تشبيه وتصوير بالغ رائع..!! ولقد جاء في بعض التفاسير أن صاحب هذه الآية وهذا المثل رجل من بني إسرائيل يسمى (بلعام بن باعوراه) وكان مستجاب الدعوة، وعندما جاء جيش موسى عليه السلام، قال له قومه: ادع الله على موسى وجماعته، وأغروه بمطامع دنوية، فاستجاب لهم طمعاً في دنياهم، فاندلع لسانه فوقع على صدره، وانسلخ من آيات الله، وأصبح كالكلب ﴿ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾.

وما ينبع الطمع في الدنيا إلا من الانهماك في الشهوات -حتى لو كانت مباحة-، فتندفع النفس خلفها فتقع في الطمع في الدنيا وملذاتها. وإشباع هذه الشهوات كمن يريد إشباع العطشان من ماء البحر، كلما شرب منه ازداد عطشاً.

فهؤلاء أهل أوروبا فتحوا أبواب الجنس على مصراعيه حتى صار كالطعام والشراب، ومع ذلك كثرت حوادث الاغتصاب وجرائم الجنس وأمراضه؛ لأن الشهوات لا تشبع،

1) (سورة الأعراف: ١٧٥ – ١٧٦)

كلما أرويتها كلما ازدادت نهماً. ولذلك كان الزهد ومحاربة الشهوات في النفس البشرية مقصوداً؛ لأن النفس لا يمكن أن تعلوا إلا إذا استعلت على شهواتها وعلى أهوائها، وبهذا يغلق باب الطمع على النفس.

ولقد أخرج الإسلام نماذج قدمت أمثلة من الإيثار، ولا يمكن للطمع أن يتسلل إلى قلوبهم، فهؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ كان الزهد جبلة فيهم، فورد أن سيدنا جابر ﷺ كان ذاهباً إلى السوق، فسأله عمر ﷺ: إلى أين يا جابر، قال: اشتهت نفسي إلى اللحم فأريد أن أشتري لحماً، قال: يا جابر أكلما اشتهيت اشتريت..؟!! فهؤلاء كيف يتسلل الطمع في الدنيا إلى قلوبهم؟!

ولقد رأينا موقف (كعب بن مالك) ﷺ حين هجره المجتمع الإسلامي في عهد النبوة بعد غزوة تبوك وعاقبه مع الثلاثة الذين خلفوا، فأرسل له ملك غسان رسالة يستميله، ويطمِعه في الدنيا، لكنه رفض رفضاً قاطعاً، واختار الله ورسوله، وعمد إلى تنور فأحرق الرسالة.

وفي التاريخ الحديث أمثلة رائعة أيضاً في البعد عن الطمع في الدنيا ومثلاً رائعاً في الأخوة والإيثار، فقد حدثني الأستاذ (كمال السنانيري) ﷺ، وكان مسئولاً عن السجناء الإخوان في سجون مصر، قال: لقد كانت حبة الشوكلاته تأتي إلى السجين – وفي داخل السجن لها قيمتها - قال: كانت تطوف على سبعة من الإخوان ثم ترجع إلى السجين الذي جاءت له...إنه الإيثار من قلوب خلت من الطمع تماماً، ومثل هذه النماذج رأيناها في الجهاد الأفغاني... فقد جمعني الله بقائد من القادة اسمه (محمد نعيم) على مائدة طعام، وقد جيء لنا بمرق ولحم في إناء، فقلت له: يا أخ نعيم: كُل.. فقال أنا آكل، فمد يده فتناول قطعة خبز مغموسة بالمرق وأكلها، وهو يستحي أن يأكل،

ويريد أن يترك لنا الطعام واللحم... وأنا كذلك استحييت أن آكل اللحم وهو لا يأكل...!! وبهذا الموقف علمني هذا القائد (محمد نعيم) درساً في الإيثار والأدب... وكيف للطمع أن يهجم على هذه القلوب..؟!!

وعندما حُكم على سيد قطب داخل أقبية السجون في مصر، حاول الطواغيت أن يطمعوه في الدنيا، فعرضوا عليه وزارة المعارف، لعله يطمع بهذا العرض السخي، فكان جوابه: (إن إصبع السبابة التي تشهد لله بالوحدانية في الصلاة كل يوم خمس مرات لترفض أن تكتب حرفاً واحداً تقر به حكم طاغية).

ولا ننسى موقف السلطان عبد الحميد، الذي ضرب مثلاً أعلى في عدم الطمع في الدنيا والاغراءات التي عرضت عليه، ففي سنة (1901م) حاول هرتزل معه كثيراً من أجل السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين وشراء الأراضي التي ليس لها أصحاب فيها، ورفض السلطان ذلك، وجاءه مرة ثانية (1902م) وعرض عليه إغراءات كثيرة، منها:

1- 150 مليون دينار ذهب انجليزي.
2- سد الديون العثمانية.
3- بناء أسطول للدولة العثمانية.
4- بناء جامعة عثمانية في القدس.
5- الدفاع عن سياسة السلطان عبد الحميد في أوروبا وأمريكا.

فكان جواب السلطان عبد الحميد: (إن عمل المبضع في بدني أهون علي من أن أرى فلسطين بترت من دولتي.. لقد خدمت الأمة المحمدية والملة الإسلامية ما يزيد على ثلاثين سنة، فلن أسود صحائف المسلمين آبائي وأجدادي والخلفاء العثمانيين بهذا العار)، ثم أرسل هرتزل رسالة له جواباً على هذه المقابلة (ستدفع يا عبد الحميد ثمن هذه المقابلة من نفسك وعرشك).

الأساس التاسع: وزن الناس بالموازين الربانية[1]

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2]، جاء في كتب التفسير - في سبب نزول هذه الآيات – أن عليةً من قريش ومن زعماء القبائل جاءوا إلى الرسول ﷺ وقالوا: يا محمد أفرد لنا مجلساً حتى نجلس معك؛ لأننا نستحي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد فتعيرنا بذلك، وهمّ رسول الله ﷺ أن يستجيب لطلبهم فيفرد لهم مجلساً، وإذا بجبريل عليه السلام يتنزل بهذه الآيات.

إن لله ﷻ قيماً وموازين أراد أن يقرها في الأرض، موازين كانت تعتبر خيالاً يمر في أدمغة البشر كأنها أحلام، فأصبحت واقعاً بسلوك وكلمات وحياة وحركات.

---

1) المراجع:
1- في التربية الجهادية والبناء ج1.
2- كلمات من خط النار الأول.
3- في خضم المعركة.
2) (سورة الأنعام: ٥٢ – ٥٤).

الميزان الرباني يقول: ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾[1]، ويقول: ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾[2]، وكما أن لله سبحانه موازين، فكذلك للبشر موازين، موازين تزن دراهم ومراتب...!! فموازين البشر تقول: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِ ﴾[3]، في موازين البشر يتفاضل الناس فيما بينهم- حسب أنظمتهم الجاهلية – بقدر وزنه في القوم أو العشيرة أو المال أو الوظيفة والمنصب، ويكون ترتيب المجتمع حسب هذه كثرة أو قلة، زيادة أو نقصاناً...!!

ومن هنا فقد يُرفع رجل –مثل أبي جهل-، فيسميه أهل الجاهلية (أبا الحكم)، ولكن ميزان الإسلام سماه (أبا جهل) ...!

ميزان الجاهلية يضع رجلاً مثل بلال ﷺ في مصاف الدواب، فيستحي زعماء قريش أن يجلسوا معه مجرد جلوس...!!

لكن الميزان الرباني شيء آخر، فقد ورد أن (بلالاً وعماراً وصهيباً) ﷺ تعرضوا لأبي سفيان بعد فتح مكة بكلام غمزوه فيه وقالوا: (وَاللَّه مَا أَخَذَتْ سُيُوفُ اللَّه مِنْ عُنُقِ عَدُوِّ اللَّهِ مَأْخَذَهَا)، فذهب أبو سفيان –الذي كان قائداً لأهل الجاهلية في مكة

1) (سورة سبأ: ٣٧)
2) (سورة الحجرات: ١٣)
3) (سورة البقرة: ٢٤٧)

وسيدها – وشكاهم إلى أبي بكر ﷺ، (فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ)، ثم انطلق أبو بكر ليشكوهم عند رسول الله ﷺ – ليسمع منه كلمة عتاب لهؤلاء ليخفف من غضب أبي سفيان طمعاً في قلبه وتثبيتاً لإسلامه –، (فَقَالَ يَا أَبَا بَكْرٍ لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ)[1].

يا الله..!! أيّ رفعة وأيّ عظمة يرتفع فيها هذا العبد -الذي كان في ميزان الجاهلية في مصاف الدواب-.. يرتفع إلى مقام ودرجة يغضب رب السماوات والأرض لغضبه ..؟!! (رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ)[2]..!!

فعندما سمع أبو بكر -هذا الرد وهذا الكلام الكبير المرعب- من رسول الله ﷺ، أخذت فرائصه ترتعد، ورجع إليهم يرجوهم أن يغفروا له زلته، ويستجيش عاطفة الأخوة في قلوبهم، ويقول: لعلّي أغضبتكم؟! فقالوا له: سامحك الله يا أخي، فتنبسط أساريره ويرتاح قلبه وتهدأ مشاعره.

ميزان الجاهلية هو الذي يجعل ثلاثة من زعماء قريش –من طلقاء الفتح-، يوم فتح مكة، يتضايقون من بلال –عندما صعد على ظهر الكعبة ليؤذن بصوته الندي -، وكانوا يجلسون وحدهم، فقال أحدهم وهو (الحارث بن هشام): الحمد لله الذي أمات هشاماً قبل أن يرى هذا المشهد، وقال الثاني (عتاب بن أسيد): ما وجد إلا هذا الغراب الأسود يصعده فوق سطح الكعبة...؟!وأما الثالث (أبو سفيان بن الحارث) فقال: أما أنا فلا أقول شيئاً.

1) (نحوه في مسلم، برقم 2504، 1947/4)
2) (مسلم، برقم 2622، 2024/4).

وهكذا ترى آثار موازين الجاهلية لا زالت في قلوبهم، يظنون أن موازينهم الجاهلية بقي لها في الأرض قرار فيستعملونها، ويأبى الله إلا أن يتم نوره.

إن إقرار موازين الله في الأرض عملية شاقة لا تطيقها إلا كبار النفوس وأفذاذ البشر، فيستعملون هذه الموازين الربانية، فيقدمون من يقدمه الله، ويؤخرون من يؤخره الله، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وأن يعطوا لله ويمنعوا لله، ويحبوا لله ويبغضوا لله.. حتى توزيع الابتسامات توزع حسب ما يرضي الله...!! هذه العملية قضية لا تطيقها إلا كبار النفوس التي تعبت عليها أنظف الأيادي في التربية عبر مسار طويل، من خلال المحن الطويلة والابتلاء الذي يصنع هذه القلوب على عين الله سبحانه. لقد طهرت قلوبهم من دنس الجاهلية وعصبيتها، والتعصب للقوم والدم والنسب، وطهرها من العداوات التي كانت تسبب نشوب حروب من أجل أتفه الأمور، وعندما حاول (شاس بن قيس) أن يعبث بها ويعيدها إلى الأوس والخزرج، ويثير فتنة الجاهلية بين المؤمنين، بعد أن آخى الرسول ﷺ بينهم، خرج عليهم رسول الله ﷺ قائلاً: (أَبِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ بَعْدَ إِذْ هَدَاكُمُ اللَّهُ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَكْرَمَكُمْ بِهِ ، وَقَطَعَ بِهِ عَنْكُمْ أَمْرَ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَاسْتَنْقَذَكُمْ بِهِ مِنَ الْكُفْرِ ، وَأَلَّفَ بِهِ بَيْنَكُمْ ، تَرْجِعُونَ إِلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ كُفَّارًا ؟ فَعَرَفَ الْقَوْمُ أَنَّهَا نَزْغَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ)[1]، وبهذا أطفأ الله كيد هذا العدو الغادر.

وبقدر ما تستعمل الموازين الربانية بين الناس بقدر ما يسود العدل في الأرض، وبقدر ما ترتاح النفوس، بقدر ما يسود العدل في أرجاء المعمورة. وإذا اختلت هذه الموازين

1) (تفسير الطبري، 56/6، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 393/1 وأصل الرواية في البخاري، برقم4905، 154/6، أوردها في حادثة حصلت في إحدى الغزوات، وأما في الطبري والكشاف فأورداها في المدينة)،

اختل المجتمع، وإذا انقلبت هذه الموازين انقلب المجتمع، ففي الحديث: (كَيْفَ بِكُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا وَالْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا ؟)[1]، فيلتبس الأمر على الذين يبتعدون عن استعمال الموازين الإلهية، ميزان ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾[2]، ميزان (اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ، وَإِنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ ، كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ)[3]، ميزان ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾[4].

يجب أن يكون واضحاً في أذهاننا، أنه لن تستقيم الحياة أبداً إلا بقدر الاستقامة وتطبيق الموازين الربانية، فإذا حدث تلاعب في هذه الموازين واختلال واضطربت في أيدي الناس، اضطرب المجتمع واختل معها، وإذا انقلبت الموازين انقلب معها المجتمع بأسره...!! فترى الناس يقولون عن رجل: ما أحلمه وما ألطفه، وليس في قلبه مثقال ذرة من إيمان -كما جاء في الحديث-.

إن ميزان العدل الرباني أنزله الله سبحانه ليقام في الأرض، ومن أجل إقرار هذا العدل ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾[5]، والعدل لن يقام في الأرض، ولن يطبق هذا الميزان ولن يحصل له قرار في الأرض إلا إذا وجد من يحميه بقوة رادعة لكل من يريد العبث فيه، فتأتي تتمة الآية السابقة ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾[6]، فالحديد لحماية

1) (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، برقم 281/12211،7)،
2) (سورة الحجرات: ١٣)
3) (البخاري، برقم 7142، 62/9)
4) (سورة سبأ:٣٧).
5) (سورة الحديد: ٢٥)
6) (سورة الحديد: ٢٥)

الميزان من التلاعب فيه عن طريق العابثين، والحديد للجهاد لحماية هذا الدين، من أجل أن تصان المبادئ من العبث، من أجل أن تحاط القيم من اللعب، من أجل أن لا يعبث السفهاء بالقيم فتضطرب وبالموازين فتختل المجتمعات، وتضيع المبادئ والقيم والأخلاق، ويسود الظلام، ويغرق الناس في المستنقع الآسن في حضيض الشهوات، التي لا تفرخ إلا في المستنقعات الآسنة، كما يعيش البعوض والذباب في هذه المستنقعات.

ولكن من الذي يستطيع أن يستعمل الموازين الربانية، ويحمي هذه الموازين؟ هل يستطيع ذلك أولئك الذين تربوا تربية ثقافية باردة على صفحات الحواشي والمتون..؟! إن هؤلاء لا يستطيعون ضبط هذه الموازين، وسيختل بين أيديهم ويختل معهم المجتمع بأسره. ولو استطاع – هؤلاء - أن يضبطوا هذه الموازين ويستعملوها، لوجدنا المعاهد الدينية والكليات الشرعية –كالأزهر وجامعة الزيتونة وغيرها- تقدم للعالم نماذج تقف أمام الظلم، ولو وضع المنشار على مفارق الرؤوس ليجعلها نصفين.

إن التربية الباردة الجامدة على الحواشي والمتون، وبالتالي حفظ المطولات والألفية وشرحها، لا تربي أفذاذ البشر، الذين يضبطون الموازين ولو كان على أعناقهم، ولا ننتظر من المعاهد الدينية والكليات الشرعية بصورتها الحالية أن تخرج لنا هؤلاء الأفذاذ، وإن كان بعض الأفذاذ تخرجوا منها، فليس بسبب التربية الثقافية التي تلقوها، وإن كان للثقافة أثر لا ينكره أحد، ولكن بسبب تأثرهم ببعض الأساتذة في هذه المعاهد أو الجامعات، يستقون منهم دينهم قبل أن يستقوا منهم علمهم وثقافتهم، يتلقون منهم ورعهم قبل أن يتلقوا منهم تعليمهم . ولذلك يقول ابن المبارك: (مكثنا عشرين عاماً نتلقى العلم، ومكثنا ثلاثين عاماً نتلقى الأدب)، الأدب الرباني، وهو العيش مع المربين بأجسادهم وأرواحهم معلقة بالله.

إن الذي يستطيع ضبط الموازين الإلهية، هم الذين تربوا بالطريقة التي تربى بها أصحاب رسول الله ﷺ، وتقلبوا بين نار المحنة وحرارة الابتلاء، أمثال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، حين قال له رسول الله ﷺ: (قم يا حذيفة وانظر لنا خبر القوم، قال حذيفة : وأنا أرتدي مرطاً لزوجتي لا يكاد يغطي ركبتي، وأن أجمع نفسي لكثرة القر، والناس لا يكادون أن يقضوا حاجاتهم خارج بيوتهم)[1]، فأصبح فيما بعد أميراً على المشرق، وبعد أن أصبح أميراً، بعث لعمر يستعفيه من الإمارة ويقول في رسالته: إني أنظر إلى هذه الأكداس من الأموال بين يديّ كفتاةٍ حسناء تراودني عن نفسي، فاتق الله فيّ يا عمر، ودعني من إمارتك ..!!

وهكذا بعد كل هذه التضحيات وهذه التربية على نار المحن، عندما جاءت المطامع الدنيوية عَفُّوا وكَفُّوا وتواروا خلف الستار، ولكنهم واجهوا الأمم جميعاً من خلال ورعهم وصلتهم بربهم، ومن خلال سلوكهم العملي الذي أدخل الملايين في دين الله أفواجا..!!

إن الذين يستطيعون ضبط هذه الموازين أمثال (سلمان الفارسي) الباحث عن الحقيقة، الذي تردد بين البلاد باحثاً عن نبي آخر الزمان ﷺ الذي سمع به من بقايا أهل الكتاب، حتى اهتدى إلى المدينة المنورة، ينتظر خروجه وقدومه، ثم بيع بين العبيد، وبقي كذلك عند يهودي حتى أعتقه المسلمون .وتدور الأيام ليجلس سلمان على عرش كسرى ابن هرمز، الذي كان يبكي في آخر حياته، فيسأله ندماؤه عن سبب بكائه فيجيبهم بأنه لم يبق عنده سوى ألف طباخ وألف مرب للصقور، بينما سلمان

1) (أصل القصة أخرجها البيهقي في دلائل النبوة، 452/3، ورواها أحمد في المسند من وجه آخر، 5/ 392)،

كان يسترزق من صناعة السلال من ورق الخوص، يبيعها بثلاثة دراهم كل يوم، درهم يقتات به، ودرهم ينفقه، ودرهم يشتري به خوصاً لليوم التالي. والسؤال: ما الذي جعل هذا الفارق بين كسرى وبين سلمان، إنها الموازين الربانية التي يمسكها سلمان ويعيش بها، والموازين البشرية التي يتعلق بها كسرى.

إن قيمة هؤلاء كالذهب الذي يحمي الأوراق النقدية من السقوط، فلا قيمة لهذه الأوراق دون الذهب الذي يدعمها ويحميها من الانهيار.

لقد كان المسلمون في المجتمع الإسلامي بعد وفاة النبي ﷺ يتساءلون دائماً: كم بقي عندنا من البدريين؟ كم بقي عندنا من أهل أحد؟ كم بقي عندنا من أهل الخندق؟ ... وبعد أن ذهب جيل الصحابة إلى ربهم، صار الناس يتساءلون: من بقي ممن رأى أصحاب رسول الله... ثم بعدها يتساءلون: من بقي من التابعين الذين رأوا أصحاب رسول الله ﷺ، ذلك الجيل الفريد...!!

لا بد أن ندرك جيداً أن الجيوش لا تنتصر، وأن المجتمعات لا تستقيم، وأن الحياة لا تعتدل إلا بكثرة هذه النماذج من البشر، فإذا كثروا في داخل المجتمع فهي علامة خير وتوفيق من رب العالمين، وإشارة الرضا عن هذا المجتمع، وبقدر ما يقرب الحاكم الصالح من هؤلاء حوله، يسترشدهم ويرتضي بحكمهم ويلتزم تعليماتهم، بقدر ما يعم الخير والطمأنينة والأمن والاستقرار في المجتمع. ومن هنا كان عمر رضي الله عنه يوصي القادة رضوان الله عنهم أجمعين أن يكون جلساؤهم من القراء والعباد، فتجد القائد حوله كوكبة من الحفظة التي لا تكلُّ عن الذِّكر، ولا تهدأ عن الاستغفار، وحالهم في الليل قياماً وقعوداً ذاكرين الله سبحانه، يستنزلون النصر بدعواتهم، وكذلك تجد صفوة

العلماء حوله، كأنهم ملوك على القادة، كما قال ابن القيم: لئن كان الملوك ملوكاً على الناس، فالعلماء ملوك على الملوك. فالعلماء كانوا ملوكاً وأساتذة وقادة على الحكام..!!

كان العالِم هو الذي يُمسك جماح القائد أن يستطير شره ويمتد على الناس، أو يصل ظلمه إلى الآخرين.

وباستعمال الموازين الربانية، ننظر حولنا فنجد مجموعة من ثلة الشرف والفخار، مجموعة من الشباب، كل واحد منهم قمة شاهقة من الإخلاص والصدق والتجرد والثبات ونسيان الدنيا خلفه، فكلما أذكرهم وأذكر مواقفهم وإخلاصهم أشعر بالبركة التي تنزلت علينا بوجودهم بيننا، وبدعائهم لنا..!!

أذكر أبا عاصم، وسعود البحري، وعبد الوهاب الغامدي، وأذكر يحيى سنيور، فأشعر بالفعل أنَّ الرحمة قد تنزلت علينا، والبركة قد حلت علينا في أعمالنا، والتيسير والتوفيق قد واكب مسيرتنا بوجود هؤلاء المخلصين الذين اختارهم الله شهداء إلى جواره، إن شاء الله[1].

فموازين البشر تقول: إن هؤلاء أناس عاديون بسطاء لا يلتفت إليهم، ولا يفتقدوا حين يغيبون، ولكنهم في الموازين الربانية يستحقون كل كرامة، ...فليس عجيباً أن نرى النور الذي كان يملأ قلب سعود البحري، قد بدأ يخرج من قبره إلى السماء ويعود – كما شهد شاهد بينكم وشهد لي الأفغان على ذلك-..!!

1) للاستزادة بإمكانك أخي القارئ مطالعة موسوعة الذخائر العظام الجزء(2)، ص(387)، حيث كتب الشيخ عبد الله عزام ترجمة عن جميع الشهداء العرب الذين استشهدوا في أفغانستان.

وليس عجيباً أن نرى جثة سعد الرشود بعد ثمانية عشر ساعة من استشهاده ترتجف عند سماع القرآن...!!

وليس عجيباً أن نشم رائحة المسك من يحيى سنيور على بعد خمس مائة متر ونيف، ويبقى المستشفى الذي ضم جثمانه الطاهر يعبق بالمسك أسبوعاً كاملاً[1].

وليس عجيباً أن صوت التكبير لا زال يسمع ويخرج من قبر عبد الله الغامدي، كما شهد لي قائد الجبهة (نظر محمد) وآخرون معه في الجبهة، ولا زلت أستفسر من المجاهدين حتى قالوا لي: تعال إلى الجبهة حتى نسمعك الصوت..!!

وليس عجيباً أن تشم رائحة المسك من ملابس عبد الرحمن البنا – حمدي البنا، ولا زالت عندنا بعض آثاره في داخل المكتب تعبق رائحة طيبة بعد أربعة أشهر من استشهاده..!!

وليس عجيباً أن تلقى خمسة قذائف من الهاون فوق خندق واحد فيه ثلاثة مجاهدين، فينجوا المجاهد العربي ويقع الأفغاني الشهيد في حضنه، ويقول: يشهد الله أنه بعد خروج روحه أصبح جسده يخرج دخاناً كدخان عود الطيب يعبق مسكاً في الآفاق، والشاب المجاهد الذي شهد بينكم الآن..!!

وليس عجيباً أن نعرف خروج روح المجاهد (عبد الصمد) -بعد إثخانه بالجراح- من رائحة المسك التي أصبحت تنتشر داخل السيارة التي كانت تقله..!!

1) كما شهد لي جمع غفير ممن يسمع خطبتي هذه..

الأساس العاشر: الصبر على مرارة الطريق [1]

قال تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾[2].

مكانة الصبر في هذا الدين:

أجمع العلماء على أن الصبر (واجب)، بقوله تعالى: (واصبر)، وهو فعل أمر يدل على الوجوب، والصبر في هذا الدين بمنزلة الرأس من الجسد، فكما أنه لا جسد بلا رأس فكذلك لا دين بلا صبر. ولا يمكن لعبد أن يجتاز مراحل الدنيا على الصراط غير صابر، ولا يرتفع إلى هذا المقام عند ربه غير صابر شاكر.

ولو تتبعنا الآيات القرآنية لوجدنا أن الصبر ورد في القرآن في تسعين موضعاً، وذكر على ستة عشر نوعاً، ولكل نوع منها فائدة، وبهذا ذكر له ستة عشر فائدة في كتاب الله العزيز.

---

1) المراجع:
1- في التربية الجهادية والجهادية ج1، ج2.
2- عشاق الحور.
3- في خضم المعركة.
4- في ظلال سورة التوبة.
5- بشائر النصر.
6- عملاق الفكر الاسلامي (سيد قطب).
7- موسوعة الذخائر العظام ج307/3، 313، 375، 403، 411.
8- في الهجرة والإعداد.

2) (سورة النحل: ١٢٧ – ١٢٨)

منها: الأجر العظيم، ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾[1]، وجاء في الحديث: (يُؤْتَى بِأَهْلِ الْبَلَاءِ ، وَلَا يُنْصَبُ لَهُمْ مِيزَانٌ ، وَلَا يُنْشَرُ لَهُمْ دِيوَانٌ فَيُصَبُّ عَلَيْهِمُ الْأَجْرُ صَبًّا حَتَّى إِنَّ أَهْلَ الْعَافِيَةِ لَيَتَمَنَّوْنَ فِي الْمَوْقِفِ أَنَّ أَجْسَادَهُمْ قُرِضَتْ بِالْمَقَارِيضِ مِنْ حُسْنِ ثَوَابِ اللَّهِ لَهُمْ)[2].

ومنها: أن الصبر والتقوى ركنان متينان ضد مكائد الأعداء، وضد مخططات الناس. ﴿ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا ﴾[3].

ومنها: سبب لنزول الملائكة بالمساعدة والعون والقتال ﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾[4].

ومنها: أن الصبر والتقوى يرفعان المسلم في الدنيا والآخرة ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[5].

ومنها: أن الصبر يفتح النفوس لتلقي الإيحاءات الربانية، لتلقي إشارات الكون، فيتدبر ويتفكر في خلقه، كما أنه يفتح القلب لتلقي معاني هذا القرآن الكريم، فيعتبر ويتذكر ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾[6].

---

1) (سورة الزمر: ١٠)
2) (المعجم الكبير للطبراني، برقم 12829، 182/12).
3) (سورة آل عمران: ١٢٠)
4) (سورة آل عمران: ١٢٥)
5) (سورة يوسف: ٩٠)
6) (سورة إبراهيم: ٥)

ومنها: أن الصبر يعلم النفس العزة، وينفي الذل من القلب، فقد حذَّر الله من الهوان والذل أمام العدو﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1]، وأمر بالصبر على جراحات الطريق وعذابها، والصبر في المعارك﴿ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾[2].

فعندما يصبر على شهوات الدنيا لا يذل لأهلها، وكيف يذل لعبيد الدنيا من ركلها برجله ..؟!!

أنواع الصبر:

النوع الأول: الصبر على طاعة الله:

قال تعالي:﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾[3]، وفيه:

أ- الصبر على العبادات: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾[4]، وذلك لأن الصبر على الطاعة إنما يحتاج نفساً دائمة المراقبة، ذات عزيمة نافذة، وذات قوة وإرادة، لا تعرف التردد ولا التلعثم، حتى تبقى مستقيمة مستمرة إلى أن تلقى الله ﷻ.

1) (سورة آل عمران: ١٣٩)
2) (سورة النساء: ١٠٤).
3) (سورة القلم: ٤٨)
4) (سورة طه: ١٣٢)

والصبر على الطاعة أقسام: صبر بالإرادة، كالصبر على الجهاد وتضحياته، والصبر على طول الرباط، وما يتبعه من صعوبات، كضيق العيش واختلاف الأطعمة وقلتها.

فالصبر إذن إما اختياري وإما قهري، فالاختياري: صبر على أوامر الله بالطاعات، والصبر عن النواهي بترك المعاصي.

ومما يحتاجه العبد في الصبر على الطاعات، الصبر في المراحل الثلاث، وهي:

1- الصبر قبل الشروع بهذه الطاعة – بتصحيح النية- وإخلاص العمل لله سبحانه، وتصحيح القصد لإرضاء الخالق، فيجب أن يتوجه القلب للخالق أثناء العبادة كلها.
2- الصبر أثناء العمل بالطاعة فتكون العبادة صحيحة موافقة لمنهج الله ومتابعة رسول الله، وأن لا يغفل القلب وهو يؤدي المأمور، ولا بد أن تنشغل الجوارح بأداء العبادة بأركانها وشروطها.
3- الصبر بعد أداء العبادة بثلاثة أمور: عدم إبطالها، وعدم العجب فيها، وعدم نقلها من ديوان السر إلى ديوان العلانية.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾[1]، إياك أن تبطل عملك فتقول: أعطيت فلاناً كذا وأنفقت على فلان كذا، وصمت كذا وصليت كذا... فهل تريد أخذ أجرك من هؤلاء؟!! إذن لا حظَّ لك من الأجر عند الله..!!

1) (سورة البقرة: ٢٦٤)

ب- ومن الصبر على تنفيذ أمر الله وطاعته (الصبر عن المعصية) بكبت الشهوات وتجنب ارتكاب المعاصي والاعتداء على حدود الله، ويكون أقل منزلة عند الله ﷻ إذا لم تتوفر الدواعي ولم تتيسر السبل ولم تتهيأ الجادة، أما إذا تهيأت الظروف وتيسرت الفاحشة، وابتعد الإنسان عن رقابة أهله ومن عاشوا معه من أهل بلده، وكان في عنفوان شبابه، فإن الصبر عليها حينئذ من أعظم الصبر، وهذا يكون من تثبيت الله ويثيبه الله بأن يجعله في ظله يوم القيامة (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ:... وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ)[1].

ج- ومن أقسام الصبر على طاعة الله (تنفيذ أمر الله وعدم معصيته بالنكول عن أوامره)، فإن من ترك الجهاد –مثلاً-، ولم يحتمل مشاقه وتضحياته -حين يكون الجهاد فرض عين-، فقد ارتكب معصية كبيرة، ولا شك بأن الثبات على الجهاد ومشاقه ومصاعبه وتضحياته والصبر عليها، وعدم الفرار والنكول عنه من أعظم الطاعات، ومن أعظم الصبر، فلا بد من الصبر والثبات في أرض الجهاد، وعدم الوقوع في معصية الله بتركه، فإن تركه –حين يكون فرض عين– وقوع في غضب الله، وارتكاب لمعصية عظيمة.

الصبر على الجهاد والتضحيات الفادحة:

لقد تمرست شعائر الإسلام وخبرتها، فما وجدت عبادة أشد ولا أشق على النفس من عبادة الجهاد، والصبر على مشاقه ومتاعبه.

1) (البخاري، برقم 1423، 111/2).

ويعتبر الصبر على الجهاد آخر مراحل غواية الشيطان للإنسان المسلم، ففي الحديث: (إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِه فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ فَقَالَ تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ تُجَاهِدُ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ وَيُقْسَمُ الْمَالُ فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ...)[1]، صحيح أن الجهاد عبادة شاقة وبحاجة إلى الصبر الطويل، لكن هذا قدرنا، فإن رسالة الجهاد ملازمة للحياة، والجهاد لا ينتهي حتى يخرج آخر نفس من الجسم، وإن كنتَ في شك من هذا فقل لنا: أين مات أصحاب رسول الله ﷺ؟! أين دفنوا؟!، إن المدينة المنورة التي هي مهبط الوحي وعاصمة دولة النبي ﷺ، لم يضم ترابها سوى بعض المئات من أجساد الصحابة الكرام...!! إذن أين بقيتهم؟! لقد حج مع النبي ﷺ في حجة الوداع مائة وعشرون ألفاً...!! إنهم متناثرون في الأرض، وقبورهم شاهدة على ذلك، فالجهاد هو عبادة الحياة وحتى الممات، وفي نهاية المطاف بشرى للصابرين﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾[2]، وميدان الجهاد كله صبر، صبر على طاعة الله والتزام الأوامر الربانية أثناء الجهاد، وحين أمر الله بالجهاد فقال: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾[3]، وهذه وحدها بحاجة إلى صبر عظيم، صبر على فراق الأهل والزوجة والأولاد والخلان والوطن

1) (النسائي، برقم 3134، 21/6)
2) (سورة الزمر: ١٠)
3) (سورة التوبة: ٤١)

والمحضن الذي عاش فيه الإنسان، كما هو صبر على ترك الشهوات والملذات، وصبر على ترك المألوفات والعادات التي اعتاد عليها في بلده، صبر على الفراش الوثير الذي كان ينام عليه، والسيارة الفارهة التي كان يتنقل بها، والبيت والمسكن الراقي الذي كان يسكنه، وصبر على ترك الوظيفة المحترمة والمكانة بين الناس، صبر على ترك الجيران الذين تعلقت نفسه بهم، صبر على الأصدقاء الذين كان يسامرهم، وصبر عن معصية الله، وصبر على قدر الله، وصبر على نعمة الله التي أنعمها عليه حين اختاره للجهاد من بين الناس، فلا يغويه الشيطان فتنقلب النعمة إلى نقمة وعذاب والعياذ بالله..!

وفي أرض الجهاد أنواع من الصبر يجب أن يحتملها، منها صبره على أميره بوجوب طاعته في العسر واليسر والمنشط والمكره (مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي)[1]، ومنها الصبر على الأجواء الجديدة التي لم يألفها، من البرد وحياة التقشف...!! كذلك الصبر على انتظام حياة جديدة والتزام بنظام لم يكن يلتزمه من قبل، فقد كان في بلده وفي بيته ينام متى يشاء ويأكل متى يشاء، ويتصرف كما يشاء، ونأكل ما نشاء، ويخرج ويدخل متى يشاء، لكن في الجهاد التزام بأمر الأمير، فيجب أن ينام بانتظام ويقوم بانتظام، ويأكل بانتظام، ويتحرك بانتظام...!!

والحق أن تحطيم هذه المألوفات التي ألفها الإنسان في بلده وانتظام حياة جديدة أمر عسير شاق، والصبر عليها من أصعب الأمور.

1) (البخاري، برقم 7137، 61/9)

لقد وجدنا كثيراً من الناس يمنعهم الخروج والهجرة والنفير إلى ساحات الجهاد، إنما هو منصبهم العالي في بلادهم، أو أزواجهم وأولادهم، أو زراعتهم وصناعتهم، أو الخوف على ثرواتهم وأموالهم... ولذلك كلما ازداد الثقل تثاقل عن الجهاد والسير إلى المهجر، ومنعته من الخير العظيم، فهذا هو الصبر على ما تهواه النفوس.

ويتضاعف الصبر على أنواع من الطاعات أكثر من غيرها كالصبر على مشاق الجهاد ومتاعبه.

الصبر على الرباط: لقد خبرت الجهاد وعشته بنفسي، فما وجدت في الجهاد أصعب من طول الانتظار والرباط، ولذلك لم يكن عبثاً ولا مصادفة ذلك الثواب العظيم والأجر الجزيل للمرابط في سبيل الله، فعن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: (مَوْقِفُ سَاعَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ عِنْدَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ)[1]، (رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ يَوْمٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنْ الْمَنَازِلِ)[2].

إن أصعب شيء على المجاهد في مواطن الجهاد هو (الرباط) لانتظار المعركة، خاصة إذا طالت فترة الرباط، فإنه أصعب على النفس من المعركة نفسها. فإذا طال الزمن وامتدت الفترة بالمرابط يبدأ الملل يتسرب إلى النفوس المتوقدة، ويبدأ الحماس يخبوا يوماً فيوماً، إذا لم تجد النفس من العبادات والزاد الروحي ما يحفظ عليها حماسها، ويبقي لها شعلة وقودها، ويؤجج نار شوقها للمعركة. وليس غريباً أن يعد الله للمرابط الأجر العظيم، ففي الحديث الصحيح: (رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا

1) (صحيح ابن حبان، 463/10)

2) (الترمذي، برقم 1667، 241/3).

عَلَيْهَا)[1]، (كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِه إِلَّا الْمُرَابِطَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يَنْمُو لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَيَأْمَنُ مِنْ فَتَّانِ الْقَبْرِ)[2].

والذي جرب الجهاد، وعاش بين المجاهدين يدرك هذه الحقيقة بوضوح، خاصة الذين يفدون إلى الجهاد من بعيد، تاركين زينة الحياة الدنيا وزخارفها وراءهم. فعندما ينفد رصيد حماسه يبدأ الشيطان يسول له بالعودة إلى وطنه، ويزين له أن ذلك من باب المصلحة والموازنة بين المصالح، والمقارنة بين السلبيات والإيجابيات...!!

وتزداد حيرة المجاهد المرابط إذا كان ذا مكانة بين قومه وفي بلده، كأن يكون مربياً للشباب أو أستاذاً لجامعة أو مديرَ شركة. وتزداد الضغوط والشكوك في قلبه إذا رأى بعض الغثاء بين المجاهدين، وحين لا يتناغم مع لغة أهل البلاد التي يجاهد فيها؛ لأن النفوس بطبيعتها تميل إلى سماع لغتها الخاصة وتقاليدها التي تربت عليها...!! وعندما يغيب الهدف الكبير الذي جاء من أجله المجاهد وتضيع معالم الطريق، حينئذ من الصعب أن تقنعه بالبقاء أو الاستمرار في هذا الطريق.

وفي أرض الرباط يزداد المجاهد نضجاً وصفاءَ في الروح، وتزداد ثقافته عمقاً وفهماً لدينه، يزداد معرفة لأساليب الجهاد، فإذا تعجل ودخل الملل إلى نفسه كان كمن يستعجل الثمرة قبل نضجها، ومن استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه.

كثير من الشباب هنا في أرض الرباط والجهاد، جاءوا مستعجلين، يريد أن يدخل أرض المعركة دون رباط ودون إعداد، غير مستعد للصبر على مشاق الرباط والإعداد،

---

1) (البخاري، برقم 2892، 35/4)

2) (أبو داود، برقم3،9/2500).

وهو لا يستطيع استعمال السلاح، وليس عنده خبرة في أساليب القتال، فنطلب منه الذهاب إلى معسكرات التدريب فيرفض؛ لأنه ليس عنده تحمل وصبر على فترة الإعداد فينطلق إلى جبهة من الجبهات، فلا يصبر على الرباط فيها، ويبدأ يحث الأمير ويستعجل المعركة، والجبهة لها طريقتها في تحديد موعد القتال، فيصبره القائد هناك، فلا يحتمل، فيحمل أمتعته إلى جبهة أخرى، وهكذا يتنقل من جبهة إلى جبهة، وأخيراً يحمل أمتعته ثم يعود إلى بيشاور صفر اليدين، لا إعداد... ولا رباط... ولا جهاد... ولا خبرة.... فيحزم أمتعته ويكر راجعاً إلى بلده كما جاء، بل بالعكس، جاء متحمساً للجهاد ثم رجع محبطاً مثبطاً عن الجهاد...!! والسبب بسيط؛ لأن مفهوم القتال وطبيعته غير واضح عنده، ولا يعرف من الجهاد سوى إطلاق الرصاص...!! مع العلم أن إطلاق الرصاص هو آخر مرحلة من مراحل الجهاد، فالذي لا يصبر على الرباط لا يحتمل تكاليف الجهاد الباهظة. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[1]، أين هذا الأجر العظيم ممن يعيشون في بلادهم حياة السوائم، غارقون في شهواتهم وملذاتهم، غارقون في الطين والأوحال، همهم الشهوات، كلامهم ممل، يتقاتلون على سفساف الأمور وتوافهها، لا تجد لهم غاية ولا أمنية كبيرة، جل همهم ماذا يأكلون اليوم وماذا يشربون بعد الطعام، وماذا يلبسون، هم أحدهم كيف يرضي الناس وكيف يرضي من يصفقون له، يهتم بملابسه ونظافتها وهيئتها وشكلها ولونها أكثر من اهتمامه بدينه،!! ﴿ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ

1) (سورة آل عمران: ٢٠٠)

وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[1]، ومما يعتصر له القلب حزناً وألماً، أنك تنظر في ساحة الجهاد، فلا ترى من المسلمين المتخصصين -الذين يحتاجهم الجهاد حاجة ضرورية، كالأطباء والصحفيين وأهل العلم-، فلا تكاد تجد إلا القلة القليلة ممن نفروا للجهاد وخدمة المجاهدين، بينما تنظر إلى الصحفي والمرأة الصحفية النصرانية، الذين جاؤوا يبشرون لدينهم ويخدمون عقيدتهم الباطلة، ويفسدون المجاهدين يدخلون الجبهات، ويسيرون المسافات الشاسعة على أقدامهم حتى يصلوا إلى أقصى شمال أفغانستان...!! ولقد رأيت بعضهم بعيني يسير أربعين يوماً بين الثلوج، حتى تقلع أظافره، وكل ذلك خدمة لدينه وعقيدته الباطلة. بينما ترى المتخصصين وأهل العلم مشغولين في شتى البلاد في مصالحهم وأموالهم وشهواتهم، ولا زالوا يجادلون: هل الجهاد فرض عين أم فرض كفاية؟!.

النوع الثاني: الصبر على البلاء والأذى:

قال تعالى:﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾[2]، إن سنة البلاء والمحنة لا تنفك عن دعوة من الدعوات﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[3]، وقال تعالى:﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[4].

1) (سورة الحجر: ٣)
2) (سورة الطور: ٤٨)،
3) (سورة الأحقاف:٣٥)
4) (سورة الأنعام: ٣٤)

فقوله تعالى: (ولا مبدل لكلمات الله) نص واضح على أن سنة الابتلاء والمحن للدعاة سنة ثابتة ماضية من نواميس الله في الدعوات لا تتخلف، وقد سئل الشافعي: (أيهما أفضل للرجل: يمكن له أم يبتلى ؟ قال: لن يمكن له حتى يبتلى)؛ لأن المحنة تصقل الأرواح وتصفي النفوس وتطهر القلوب من أدرانها وأوضارها، وفي الحديث: (إِنَّمَا مَثَلُ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ حِينَ يُصِيبُهُ الرَّعْدُ وَالْحُمَّى ، كَمَثَلِ حَدِيدَةٍ تَدْخُلُ النَّارَ فَيَذْهَبُ خَبَثُهَا وَيَبْقَى طِيبُهَا)[1]، والمحنة كلما اشتدت كلما اقترب النصر (وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)[2]، وإن طول المعاناة يصقل عناصر الدعوة، وينضج جنودها، وتزداد صلابة قادتها. وفي الحديث (أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قال: الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ)[3].

وهو منزلة عظيمة، لكنه دون منزلة الصبر باختيار الإنسان وإرادته، فالصبر على المرض أو السجن مثلاً أقل منزلة من الصبر على الجهاد؛ لأنك هنا خارج للجهاد باختيارك، نافر إلى الله ﷻ بإرادتك وطاعتك، تارك أهلك ووظيفتك ومالك ودنياك لله سبحانه.

والصبر من أجل رضى الله ثلاثة: "صبر بالله، وصبر لله، وصبر مع الله".

1) (المستدرك للحاكم، برقم 145/246،1).

2) (مسند الإمام أحمد، برقم2804،1/ 307)

3) (الترغيب والترهيب، برقم 5155، 141/4).

أ- **الصبر بالله:** هو أن يكون موقراً في قلبك، مستقراً في أعماقك أن الصبر الذي تصبره إنما هو من رب العالمين ليس لك فيه حول ولا قوة﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾[1].

ب-**الصبر لله:** وهو أن تنظر بقلبك ونيتك وعينك دائماً إلى السماء، بأن العمل كله أريد به الثواب والأجر منه سبحانه.

ج- **الصبر مع الله:** وهو أن تدور مع الشرع حيث دار، وتسير معه حيثما سار، دون سخط أو جزع. فتسير مع الله بإرادته الشرعية، وأن تحبس النفس عن المعاصي وتسير مع الطاعات باتباع الأوامر واجتناب النواهي، والتسليم للقضاء والقدر، وهذا النوع ذكرناه سابقا في النوع الأول من أنواع الصبر وهو (الصبر على الطاعة).

فالصبر كما نقول دائماً، هو بمنزلة الرأس من الجسد، فكما أنه لا جسد بلا رأس فكذلك لا دين بلا صبر، وبالصبر ينال التمكين في الأرض﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ [2]، فبصبر بني إسرائيل مكن لهم في الأرض (بما صبروا) والباء سببية، أي: بسبب صبرهم مكن الله ﷻ لهم في الأرض، وأورثهم الأرض المباركة، وهي فلسطين. وحكموها بالتوحيد، وأقاموا عليها دين الله. بعد أن كانوا يُستذلون ويُستضعفون، بعد أن كانوا أذلة عند الأقباط. فبصبرهم على الابتلاء، وبصبرهم على نهج نبيهم وبصبرهم على إيذاء عدوهم، وبصبرهم على تنفيذ أوامر

1) (سورة الإسراء: ٧٤).

2) (سورة الأعراف: ١٣٧).

الله، مكن لهم في الأرض، وجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين.﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾[1].

والبشرى لكل من صبر، بشرى له في الدنيا وبشرى له في الآخرة، بشرى له في الدنيا بالتمكين والنصر والاستخلاف، وبشرى له في الآخرة بالأجر العظيم والثواب الجزيل (يُؤْتَى بِأَهْلِ الْبَلَاءِ ، وَلَا يُنْصَبُ لَهُمْ مِيزَانٌ ، وَلَا يُنْشَرُ لَهُمْ دِيوَانٌ فَيُصَبُّ عَلَيْهِمُ الْأَجْرُ صَبًّا حَتَّى إِنَّ أَهْلَ الْعَافِيَةِ لَيَتَمَنَّوْنَ فِي الْمَوْقِفِ أَنَّ أَجْسَادَهُمْ قُرِضَتْ بِالْمَقَارِيضِ مِنْ حُسْنِ ثَوَابِ اللَّهِ لَهُمْ)[2]، بشرى لهذه الفئة التي صبرت وجاهدت ونصرت إخوانها في أفغانستان، بشرى لهؤلاء الذين ضحوا ومضوا شهداء إلى الله، بعد أن تركوا كل متاع الدنيا وراءهم، وتركوا أهليهم وبلادهم، وبعضهم تركوا أبناءهم وزوجاتهم، تركوا العيش الرغيد، وعاشوا مع الأفغان بحياة الشظف والزهد وصبروا عليها لله، ثم اختار كوكبة منهم شهداء.

الصبر على جرائم الطغاة وسجونهم:

قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[3]، وعن خباب بن الأرت رضي الله عنه

1) (سورة القصص:٥- ٦)

2) (المعجم الكبير للطبراني، برقم 12829، 182/12).

3) (سورة الأنعام: ٣٤)

قال: (شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ قُلْنَا لَهُ أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ: " كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ...")[1]، ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾[2]، وحدثني من تعرضوا للتعذيب في غياهب سجون الطغاة قالوا :(كانت تمر علينا ساعات من الآلام والتعذيب، نقول ونحن في الزنازين ": لقد نفذ صبرنا، ولو طلبوا منا أي شيء لقلناه...! وإذا بهم بعزيمة جديدة وصبر جديد، فلا يتلفظون ببنت شفة...!

أمثلة ونماذج من الصابرين على جرائم الطغاة:

وهناك كثير من الأمثلة من السلف والخلف على صبر الصالحين من الدعاة في محنتهم أمام الظالمين، ولكن أيضاً هناك أمثلة رائعة ضربها لنا العديد من الدعاة في صبرهم أمام الطواغيت.

فهذا ابن تيمية قبل عدة قرون وقف أمام الطغاة فصبر، ثم ألقي به في سجون الطغاة، في سجن القلعة في الشام فصبر، ثم قال كلمته المشهورة (ماذا يفعل بي أعدائي، ماذا يصنع بي أعدائي، إن جنتي وبستاني في صدري لا يفارقني، إن سجني خلوة وقتلي شهادة ونفيي سياحة ...!)

1) (البخاري، برقم 3612، 201/4).
2) (سورة النحل: ١٢٧).

وهنا نكرر قصة عملاق الفكر الإسلامي (سيد قطب) حين وقف أمام الطاغوت وقفة عزيزة جريئة، وأمام إغراءاته وسطوته، حدثتني حميدة قطب – أخت سيد – قالت لي: في 28 آب سنة 1966م جاء قرار عبد الناصر بإعدام مجموعة من الدعاة، ومنهم سيد قطب، فناداني مدير السجن الحربي (حمزة البسيوني) وأطلعني على قرار الإعدام، ثم قال: أمامنا فرصة واحدة لإنقاذ الأستاذ سيد، وهي أن يعتذر، فيخفف عنه حكم الإعدام إلى السجن لمدة ستة أشهر، ثم يخرج بعدها بعفو صحي...!! هيا يا حميدة أسرعي وأقنعيه ليعتذر، قالت: فذهبت وأخبرته بالأمر فأجاب: عن أي شيء أعتذر يا حميده؟ عن العمل مع الله ...؟! والله لوكنت أعمل مع غير الله لاعتذرت، ولكني لن أعتذر عن العمل مع الله...!! وأخذ يطمئن أخته ويقول: اطمئني يا حميدة، إن كان العمر قد انتهي فسينفذ حكم الإعدام، ولن يغني الاعتذار شيئاً، وإن كان في العمر بقية فلن ينفذ حكم الإعدام ...!! هذا مثال عجيب في الصبر أمام الطاغية، بينما حبل المشنقة يلوح بين يديه...! وتعرض عليه وزارة المعارف فيجيب (إن إصبعي السبابة التي تشهد لله بالوحدانية في الصلاة ليرفض أن يكتب حرفاً واحداً يقر به حكم طاغية.

وفي العصر الحاضر هذا القائد (جلال الدين حقاني) -أحد أبرز القادة في أفغانستان– يرسل له رئيس دولة الشيوعيين في أفغانستان رسالة يرجوه فيها أن يخفف عن جيشه الضربات ويؤمن له الطرق حول المدن، مقابل أن يعطيه ولاية كاملة وهي (بكتيا)، وطلب منه مقابلته شخصياً، فأجابه جلال الدين بقوله: إلحق بالمجاهدين خير لك قبل أن يصيبك ما أصاب أسلافك من قادة الشيوعيين...!! وهكذا وقف صابراً على الإغراءات، عزيزاً وركل دنياه برجليه.

ومن النماذج الحية التي رأيناها بأم أعيننا، وعشنا بينهم، ممن صبروا على هذا الطريق ثم اختارهم الله شهداء، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً. نماذج كثيرة، نذكر منهم على سبيل المثال: (الشيخ تميم العدناني، ويحيى سنيور، وعبد الوهاب الغامدي، وعبد الصمد-مفتاح-، وحمدي البنا (عبد الرحمن البنا)، وأبو عقبة التونسي، وأبو عاصم (محمد عثمان)، وأبو عبد الحق، وسعود البحري، وأبو دجانة المصري، وأحمد الزهراني، وأبو خالد الجزائري، وعبد الله المصري، وياسر أبو النور، وذبيح الله (أبو حامد)، وأبو حفص (هشام منصور)، وسبع الليل اليمني، وأبو جعفر الشامي[1].

مسيرة قمة -من قمم الصبر- في الدعوة والجهاد:

ومن النماذج التي صنعت التاريخ بصبرها في ميدان الدعوة والجهاد، ورأينا منها العجب في مواجهة الطغاة والظالمين والمستعمرين، الشهيد البطل (سيد أحمد عرفان الشهيد) الذي عاش في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي وبداية القرن التاسع عشر الميلادي، في القارة الهندية، فقد ولد هذا البطل سنة (1786م) في بيت علم وأدب ودين، فآباؤه الصيد يشار إليهم بالبنان، علماً وخلقاً وزهداً ورفعة في بلدة (رائي بريلي)، وكان متيماً منذ نعومة أظفاره بالفروسية وامتطاء صهوة الجياد، والرياضة والسباحة، ولوعاً بخدمة الأمة، التي جعل إنقاذها نصب عينيه، وكان متعبداً متبتلاً، ذاكراً مسبحاً، فكان يقسم وقته بين خدمة الناس والعبادة والتسبيح والرياضة . إنه الصبر العجيب على تربية النفس وإعداد الروح والجسم، لمواجهة المراحل الصعبة التي سيواجهها مع المجرمين والمعتدين. وبدأ مواجهة المرحلة الصعبة والصبر على لأوائها

1) للاستزادة بإمكانك أخي القارئ مطالعة موسوعة الذخائر العظام الجزء(2)، ص(387)، حيث كتب الشيخ عبد الله عزام ترجمة عن جميع الشهداء العرب الذين استشهدوا في أفغانستان.

منذ سن الثالثة عشرة من عمره، حين فقد والده، فخرج إلى (لكنو) لطلب الرزق في رحاب العلم والتربية، ثم ترك أحمد عرفان (لكنو) وتوجه إلى (دلهي) ماشياً على قدميه، يكابد بصبره العجيب وعثاء السفر ومرارة المسير وغصص الرحلة، إذ كان يقطع هذه المسافة وحيداً، يواجه الجوع والعطش والألم حتى تورمت قدماه، حتى وصل للشيخ عبد العزيز ابن الإمام ولي الله الدهلوي، فعندما قدم أحمد عرفان نفسه إلى الشيخ عبد العزيز وعرف بنفسه فرح به كثيراً، وأحله بيت أخيه عبد القادر، وبدأ يتلقى الأدب قبل العلم، وأخذ يجتهد في العبادات والأذكار مع العلم، ولذا ترك الشيخ عبد العزيز وأخوه بصماتهم على نفسية سيد عرفان .

عاد هذا الرجل الصالح الصابر إلى وطنه بعد هذه الفترة التربوية التي تلقاها على يد شيخيه، إلى بلده (رائي بريلي)، وبعد عامين عاد مرة أخرى إلى شيخه عبد العزيز في (دلهي)، فلفت نظره إلى الانخراط في جيش (أمير خان)، الذي كان يقوم بجهود طيبة في مواجهة الزحف الإنجليزي، وأمير خان من أصول أفغانية، ذو مروءة وهمة عالية، وانضم حول سيد عرفان مجموعة من الفرسان الأسود، ومكث في الجيش ست سنوات مربياً وداعياً وجندياً وليثاً هصوراً، صابراً محتسباً، فارتفع مستوى الجيش التربوي والروحي بسبب جهود سيد عرفان وإعداده لهذا الجيش بأخلاقه العملية قبل النظرية، فكانت أخلاقه مدرسة فذة ومنارة سامقة .

ومما ساعد سيد عرفان في مسيرة العرق والدم والصبر على الطريق، والإعداد والتربية، بيعة اثنين من أسرة (شاه ولي الله الدهلوي)، وهما الشيخ عبد الحي بن هبة الله البرهانوي، والشيخ محمد إسماعيل بن عبد الغني بن ولي الله الدهلوي، وأصبحا أخص خاصته، وكَوّنا جناحين طار بهما في مسيرة الدعوة والإعداد والجهاد، وهذان الرجلان

من عمالقة حركة الإصلاح الديني في الهند وأفغانستان، وعاشا معه مسيرة آلام أمة، تعتصر قلوبهم حزناً، وآمالها التي ترفرف بأشواقها المجنحة في صدورهم وأعماق قلوبهم، صابرين محتسبين.

وهنا بدأت الدماء تجري من جديد في العروق الجافة في الهند، والنبض يقوى، فيضخ الدماء إلى الأطراف الميتة، فطفقوا يجوبون القرى والمدن، ويتبعهم الآلاف، يقبلون على بيعة السيد أحمد عرفان، وكان مع صاحبيه بأخلاقهم وسمتهم ودلهم، روحاً جديداً تنفخ في القلوب الميتة. فمن (دلهي) إلى (بهت ولوهاي وسهارنفور وبريلي وشاه آباد) يجوبون هذه البلاد وينشرون فيها الخير والدعوة ويعيدون نبض الدم في العروق الجافة.

مواجهة الفتاوى الضالة:

قام بعض الجهلة – ممن يدعي العلم- وأصدروا فتوى بأن الحج فيه مخاطر، وأخذوا يخذلون عن الحج، فوقف سيد عرفان في وجه هذه الفتوى، وقرر المسير إلى الحج مع أربعمائة، فكلما مروا على بلد نادوا بالناس لأداء هذه الفريضة، وأن من أراد الحج فنفقته على السيد عرفان، فتبعه الجموع، وسار بركبه حتى أدى مناسك الحج مع سبعمائة شخص ممن تبعوه، ثم بايع أتباعه – مع جمع من العلماء - على الجهاد في نفس مكان (بيعة العقبة)، وكان ممن بايعه إمام الحرم ومفتي مكة ...!!

مسيرة صبره على الجهاد:

وبعد عودته من الحج أخذ يحصر سيد عرفان جهده في الإعداد والجهاد والهجرة، لشعوره بالحمل الثقيل والأمانة الكبيرة، وبسبب جثوم بريطانيا على جسد الأمة والشعب الهندي، فليس لهذه الحالة حل إلا بالهجرة والجهاد والإعداد وبذل المهج

والأرواح.﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ ﴾[1]، وكان الهدف السامي عند السيد عرفان، تحرير القارة الهندية بأسرها وإقامة حكم إسلامي فيها، وصمم أن يبدأ معركته الأولى مع السيخ الذين كانوا يقيمون في البنجاب. ولقد صور الشاعر (إقبال) حال المسلمين فيها مع السيخ بقوله: (لقد مات الإسلام في هذه المنطقة، لأن السيخ قد انتزعوا من المسلمين السيف والمصحف) ...!!

واختار سيد عرفان المناطق الأفغانية، لينطلق منها في جهاده، نظراً لطبيعة الشعب الأفغاني ذات الشكيمة الصلبة والمراس الشديد، عدا أن كثيراً من أبنائها قد دخلوا جيشه وبايعوه، فكان يطمع في القبائل الأفغانية أن تنضم إليه.

غادر سيد عرفان وطنه سنة 1241 هـ متوجهاً إلى المنطقة الشمالية القريبة من الهند (بشاور والحدود)، فاجتاز صحراء بلوشستان المقفرة، وتكبد من عناء العطش ولفح الصحراء ما تكبده، ووصل (قندهار) ثم اجتاز أفغانستان إلى بيشاور، وكانت يومها جزءاً من أفغانستان التاريخية، ولا يمر ببلدة إلا ويبعث منظر جيشه الأمل في قلوب المسلمين اليائسة، فيحرض على القتال ويبث روح الحمية الإسلامية واستثارة الغيرة الدينية في نفوس الناس، فكان جيشه يزداد كلما مر بقبيلة أو قوم، فيندفع الناس لمبايعته .ولذا كانت هجرته صعبة شاقة يتجرع السيد عرفان مرارة الصبر على مشاقها.

1) (سورة النساء: ٨٤).

فقطع الجيش صحراء (ماروار) –بين الهند والسند- التي تمتد على طول 418كم ...!! وبعد هذه المسيرة المضنية الصعبة الشاقة استقبلهم أهل السند استقبالاً حافلاً ثم دخلوا صحراء بلوشستان بشعبها الجاف الخشن عدا عن انحسار الدين عن الحياة، ناهيك عن اللصوص الموزعين على طول الصحراء وعرضها، ثم دخلوا ممر (بولان) الشهير، الذي يعتبر المدخل الوحيد بين الهند وأفغانستان، وطوله 55كم، وأخيراً وصلوا مدينة شاك (كويته)، إلى أن وصلوا مدينة (غزني) ثم (كابل)، وقد استقبلتهم المدن الأفغانية بحفاوة وتكريم كبير، فكان الأمراء في تلك المدن يخرجون لاحتضانه والاحتفاء به. والحق أن سيد عرفان كان معجباً بالعرق الأفغاني الأصيل، ويرى أن فيه الأصالة وطيب المعدن والمروءة والفروسية ما يمكنه أن يقيم به دولة إسلامية تمتد من الهند إلى أسوار القسطنطينية لو اتحدوا، فحاول جاهداً الإصلاح بينهم، ولكنه فشل.

ثم واصل سيد عرفان مسيرته إلى أن حط ترحاله في (نوشهرة) وأقام معسكره الإسلامي فيها، ووجه رسالة إلى ملك السيخ (رنجيت سنغ) في لاهور، يدعوه ويعرض له فيه الخيارات الثلاثة: إما الإسلام، أو الجزية أو السيف ...!!، فاعتبر الملك هذه الرسالة تطاولاً على سيادته من شيخ من شيوخ المسلمين، الذين كانوا مستضعفين. وبدأ سيد عرفان معاركه مع السيخ ومع رأس الأفعى (البريطانيين)، فخاض كثيراً من المعارك، وأهمها:

1- معركة (أكورة ختك) مع السيخ وانتصر فيها.
2- معركة شيدو قرب نوشهرة، مع السيخ، وحاول بعض الخونة قتل سيد عرفان بالسم، بل تآمروا عليه ليسقط في يد السيخ أسيراً ..!! وكانت معركة عظيمة لها ما بعدها لو صدق معه أمراء بيشاور، فلو صدقوا معه لغيرت وجه التاريخ في

المنطقة، ولكنها الأطماع والأهواء التي تضيع الأمم. وحين شعر السيد عرفان بالغثاء في جيشه، وقد علمته معركة شيدو الكثير، فانزوى بأتباعه إلى قرية (بنجتار) على أطراف (سوات)، في ضيافة (فتح خان) زعيم قبيلة (خدو خيل)، وجهد عليهم في التربية والإعداد والصيام والقيام وكثرة الذكر، ثم أقام مصنعاً للذخيرة والقنابل في قرية (قاسم خيل). وبعد سنة من البناء والتربية، عرض على زعيم القبيلة أن يطبق الشريعة الإسلامية مكان القانون القبلي، وفي جمع غفير بايع زعيم القبيلة سيد خان على الإسلام وطبقت الشريعة الإسلامية في المنطقة.

3- خذلان السيخ بقيادة (فينتورة) الذي كان قائداً لـ (رنجيت سنغ) زعيم السيخ. وذلك بعد محاولة فاشلة عندما حاول السيخ الهجوم على (بنجتار)، فألقى الله الرعب في قلوب السيخ وانهزموا مخذولين.

4- معركة (تورد). وذلك بعد مقتل (يار محمد) أمير بيشاور(الخائن) في معركة (زيده)، فأقبل أخوه سلطان محمد على رأس جيش ليأخذ بثأر أخيه، فهزموا والحمد لله أمام جيش سيد عرفان، وقتل منهم الكثير.

5- فتح بيشاور. توجه سيد عرفان بجيش لمدينة بيشاور، فأعلن أمير بيشاور توبته وعودته عن الخيانة فأبى السيد إلا فتح بيشاور، لكن الأمير أكد له توبته، والتقيا وجدد بيعته للسيد عرفان وعاهده على الإخلاص. ثم خضعت بيشاور للحكم الإسلامي.

خطأ السيد عرفان القاتل:

قد يلتمس العذر للسيد عرفان حين قبل توبة محمد خان، ولكن الخطأ الذي قتله حين أعاده قائداً لمدينة بيشاور، فلم يلبث كثيراً حتى عاد محمد خان للتآمر من جديد على الإسلام والسيد عرفان، واتفق مع السيخ والإنجليز وبعض زعماء القبائل أن

يشيعوا بين الناس بأن السيد عرفان جاء بدين جديد اسمه (الوهابية)، وانطلت اللعبة على الدهماء والعامة، وانقلبوا على السيد عرفان وقادته والقضاة والعلماء وعملوا بهم مجزرة عظيمة، أنهت قوة السيد عرفان، ووقع النبأ على قلبه كالصاعقة، فقرر الرحيل من المنطقة كلها – مع من بقي من صفوة تلاميذه- متجهاً إلى كشمير ليقاتل الإنجليز هناك، إلا أن جيوش السيخ في منطقة (بلاكوت) كانوا له بالمرصاد، فقرر المواجهة، إما النصر وإما الشهادة... وكانت نهاية مسيرته الجهادية والدعوية في هذا المكان، واستشهد السيد عرفان، بعد هذه المسيرة الجهادية والدعوية، بعد أن قدم لنا مثلاً أعلى في الصبر والثبات والتضحية .!!

ومع ذلك فقد قرر أتباعه من بعده الاستمرار في خط السيد عرفان وجهادهم ضد الإنجليز، وفي منطقة البنجاب – حين شعر الإنجليز بخطورتهم، أثاروا القبائل عليهم باسم الوهابية، وأنهوا وجودهم نهائياً.

ولقد أطلنا الحديث عن هذا الليث من ليوث الإسلام، لأن تجربته - الجهادية والدعوية والتربوية، وصبره العجيب في مواجهة الطغاة والظالمين - مليئة بالدروس العظيمة، والتي يمكن أن ينتفع بها أبناء الحركات الإسلامية، حتى لا تتكرر أخطاء الدعاة.

الأساس الحادي عشر: الثقة بوعد الله والتوكل عليه [1]

قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[2]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾[3]، وقال رسول الله ﷺ: (لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ)[4]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾[5].

---

1) **المراجع:**
1- في التربية الجهادية والبناء ج1.
2- في ظلال سورة التوبة.
3- في خضم المعركة.
4- موسوعة الذخائر العظام ج403/2.

2) (سورة التوبة: ٣٢ – ٣٣).

3) (سورة الأنفال: ٣٦)،

4) (مسند الإمام أحمد، برقم 17231، 1377/6).

5) (سورة الطلاق:٢– ٣).

والتوكل على الله نصف الدين، والدين قسمان:(عبادة واستعانة)﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[1]، وهذا النص يشير إلى أن جماع الدين في هاتين الكلمتين: فاعبده وتوكل عليه فهو جدير بأن يعبد، خليق بأن نستعين به؛ لأن الأمر كله له وبيده الأمر، لا يرد أمره ولا معقب لحكمه، أمره نافذ وقضاؤه لا مرد له.

والتوكل عند جمهور العلماء: هو الثقة بأن قضاء الله نافذ، والاطمئنان إلى قدر الله النافذ، مع الأخذ بالأسباب التي أمر الله بها؛ لأن ترك الأسباب طعن بالسنة؛ لأن الرسول ﷺ كان يأخذ بالأسباب وتوقي المحاذير، وكان يُعَمِّي في الحروب، ويتخفى ويكني ويقول: الحرب خدعة، ويلبس درعا وقد يخالف بين درعين ويتداوى. وهذا لا يطعن في التوكل ولا يجرح بعقيدة الثقة بالله.

يقول ابن القيم رحمه الله في كتابة (طريق الهجرتين وباب السعادتين): التوكل مركب السائر، لا يتأتى له السير إلا به. فهو سيارتك ودابتك، التوكل دابة المسلم توصله إلى الله عز وجل، ومتى نزل عنه انقطع عن ربه، وهو من لوازم الإيمان﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[2]، فجواب الشرط متقدم على الشرط، أي: إن كنتم مؤمنين فتوكلوا على الله. والتوكل يجمع أصلين: علم القلب وعمله، أما علمه فيقينه بكفاية كفيله، وكمال قيامه بما وليه، وأن غيره لا يقوم مقامه، فهو أن تعتقد أن الذي وكلته بأمورك قادر أن يدبرها، وأن الذي كفلته بشؤونك قادر أن ييسر هذه الشؤون وييسر هذه الأمور.

1) (سورة هود: ١٢٣)
2) (سورة آل عمران: ١٢٢)

وأما عمل القلب، فسكونه إلى وكيله – رب العالمين- وطمأنينته إليه وتفويضه وتسليمه أمره إليه، ورضاه بتصرفه له، فوق ما يتصرف هو لنفسه، وخيرة الرب لعبده خير من خيرة العبد لنفسه، فالله أعلم بكم أيها العبيد، وهو أعلم بما يصلحكم وبما يدبر أموركم، وبما ييسر أحوالكم، وبما يسكن قلوبكم، ويصلح ذات بينكم.﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[1].

فكم من القضايا ضاق الإنسان بها ذرعاً إذا نزلت، وكم من الأمور عندما تواجه الإنسان، كأنَّ الكروب كلها أخذت بخناقه، ولكنه بعد حين يدرك حكمة رب العالمين بهذا الأمر، الذي لو خُير إذ نزل لا يختار غيره، فالخيرة ما يختاره الله سبحانه. ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ ﴾[2]، ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾[3]، عزيز لا يذل من استجار به، ولا يضيع من لاذ بجنابه، حكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره.

والتوكل ينافي (الطيرة)، والتوكل لا ينافي الأسباب، أما الطيرة فإنها كلم يكلم التوكل. ومن ردته الطيرة فقد أشرك شركاً أصغر، وليس شركا أكبر يخرج من الملة، ولذلك إذا تطيرت فامض لشأنك. كان رجل يمشي مع ابن عباس، فسمع صوت غراب، فقال: خير.. خير، فقال ابن عباس: أي خير وأي شر في هذا؟! أنا لا أمشي معك، فتركه لأنه يتطير..

1) (سورة البقرة: ٢١٦).
2) (سورة الطلاق: ٣)
3) (سورة الأنفال: ٤٩)

والعرب كانت تتطير بالألوان، وكانت تتطير بالأصوات، وكانت تتفاءل بأصوات بعضها، فجاء الإسلام ليمسحه من قلوب العرب، ويجعل عقيدة التوكل بالله. وكان العرب في الجاهلية يقولون إذا نزلوا منزلاً يقولون: نعوذ بحامي هذا الوادي، أي الجن، فجاء الإسلام ونفى هذا. ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[1]، وقد ورد أن بعض الناس تركوا الأخذ بالأسباب ثقة بالله، فهؤلاء أفذاذ من البشر لا يقاس عليهم، هؤلاء أفذاذ من البشر خارج عن قانون الناس في عوام أمورهم، فقد جاء في الحديث: (سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ... قال: هُمْ الَّذِينَ لَا يَتَطَيَّرُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَكْتَوُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)[2]، لا يسترقون، أي: لا يطلبون الرقية من أحد، لا يتناولون الدواء من أحد، ولا يكتوون، لأن الكي خلاف الأولى، ولا يتطيرون؛ لأن التطير تشاؤم بأشياء لا قيمة لها في واقع الحياة، ولا تؤثر على نفاذ قدر، ولا تعويق مشيئة من رب العالمين.

جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال له: (أَعْقِلُ ناقَتي وَأَتَوَكَّلُ أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ، قَالَ: "اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ")[3].

والتوكل يعتمد على الزهد، ولا يطعن في التوكل مثل التعلق بالدنيا، وأكثر الناس توكلاً هم الذين زهدوا بما في أيدي الناس وزهدوا في الدنيا، فلا يعودون يخافون على شيء، إن أقبل فنعمة من الله وشكر، وإن أدبر فبلية من الله يصبر عليها، فالزهد في الدنيا والزهد بما في أيدي الناس هما قائمتان من قوائم التوكل.

---

1) (سورة الجن: ٦)

2) (البخاري، برقم 5752، 134/7)

3) (الترمذي، برقم 2517، 249/4).

وأكثر ما يهدم التوكل في قلب المسلم هو الحرص على الدنيا والشرف والمال. فالحرص على الشرف يعني العلو في الدنيا والحرص على المال طعنتان نجلاوان تصممان وتسددان إلى عقيدة التوكل عند المسلم.﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1].

قلت ذات مرة لأحد قادة المجاهدين الأفغان: إن سلوككم في القضية الفلانية ينفر قلوب العرب عنكم، وتشح المساعدات المالية التي تصلكم، فقال: هذه القضية لا تهمني أبداً ولا أفكر فيها، لقد بدأنا الجهاد وبقينا سنوات طوال قبل أن نرى عربياً واحداً، وسار جهادنا وكان أنجح، والنصر أعظم، قبل أن تأتينا معونات العرب، فإذا انقطعت معونات العرب فلعل رب العزة يعيد إلينا الأيام السابقة، يوم أن كانت الانتصارات تتوالى علينا من كل مكان...!! فيوم أن تنقطع أسباب الأرض تنفتح أسباب السماء، ويوم أن يتعلق المرء بحبال الأرض تقل حبال السماء، أو تنقطع الحبال أو تذوب تدريجياً.

هؤلاء الشباب المجاهدون علمونا عقيدة التوكل على الله والثقة به، وأن الرزق والأجل بيد الله...!! وأذكر أن أحد الطيبين من المحسنين العرب كان يوزع خياماً وطحيناً على بعض الأفغان المهاجرين، وقد وصلوا من داخل أفغانستان بعد تعب ونصب وجوع، فوزع عليهم مساعدات، فأقبل شيخ أفغاني وأعطاه خيمة وطعاماً.. فكادت الشمس أن تغرب، وتذكر هذا المحسن صلاة العصر، فاتجه إلى القبلة وصلى سريعاً بحذائه، فغضب هذا الأفغاني عندما رآه، وجاء بالمساعدات وألقاها في وجه العربي

1) (سورة القصص: ٨٣).

المحسن وقال له: أنت لا تحترم دين الله، وأنا لا آخذ منك المساعدة...!! ثم جاء بمترجم وأفهمه أن الصلاة في الحذاء جائزة وليس حراماً، فأخذ المساعدات بعد أن فهم الحكم...!! هؤلاء المتوكلون على الله فعلاً...!!

حدثني القائد الشيخ جلال الدين حقاني قال: كنت ذات مرة مهموماً على طعام المجاهدين، إذ نفذ طعامنا ونحن في قمة الجبل في أيام (تراقي)، لا نستطيع أن نختلط بالناس، ولا أن نغادر قمة الجبل، ولا أن نوقد ناراً، حتى لا يكشفنا الدخان، قال: فصليت الفجر وأخذتني سنة من النوم وأنا مهموم لا أدري من أين نأكل، قال: فإذا بهاتف يربت على كتفي ويقول في أذني: يا جلال الدين، كان الله يرزقك قبل أن تجاهد في سبيله، فهل تظن أن الله يتركك بعد أن شرعت الجهاد في سبيله؟!! قم إلى تلك الشجرة، ستجد اللحوم معلقة عليها، قال: وإذا بأناس من القرية يأتون ويهدون المجاهدين ذبائح، ويعلقونها على نفس الشجرة التي رأيتها في المنام...!!

كم من المجاهدين حدثوني: أنهم كانوا في صحراء بيداء من الأرض، لا ماء.. ولا شجر.. ولا حيوان.. ولا أثر لدابة فيها، وأخذ الجوع منا كل مأخذ، ودعونا الله أن يطعمنا، وإذا بعنب وشمام موجود أمامنا...!

وقالوا لي: كنا في (قاعدة أسامة بن زيد) فقطعنا النهر ورجعنا؛ لأن العدو حاصرنا، وبقينا ثلاثة أيام، وأصابنا الجوع الشديد، وإذا بالنهر يحمل علبة معلبة جديدة كأنها خارجة من مصنع، ففتحناها وإذا بها طعام...!! (لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُوا خِمَاصاً وَتَرُوْحُ بِطَاناً)[1].

1) (ابن ماجة، برقم 4164، 1394/2).

حدثني بعض الإخوة المجاهدين من العرب، عن القائد (صفي الله أفضلي) قائد جبهة هرات: أنه قد جاءت الطائرات وألقت بقنابلها على البيت الذي كان فيه صفي الله، وهدم البيت على من فيه، وبقي أفضلي تحت الركام ربع ساعة، وأخرجوه بصعوبة بالغة، وخرج يتحامل على نفسه، ليتفقد الجبهات الأخرى، خرج بمائة مجاهد ونيف، وعندما وصل إلى (ككرى) وجد ابن عمه قاسم -قائد الجبهة قد قتل-، واحتل الروس (جشمة شيرين) - يعني العين الحلوة-، فأقسم ليصلين العصر في جشمة شيرين...! فقال له إخوانه: إنك مريض متعب، وجئنا بك لنضعك في المستشفى، قال: والله لن أصلي العصر إلا في جشمة شيرين، وانطلق لتوه، وبر الله بقسمه، وطرد الروس منها وصلى العصر في جشمة شيرين...!! إنها الثقة بالله وقوة التوكل عليه...!!

وهذه الثقة لم تأت بسهولة، إنما جاءت بعد معاناة وتضحية، بعد أن أكل الجوع أبدانها، وعضتهم أنياب الفاقة، وتقلبوا بين نيران لا يعلمها إلا من عاشها وذاقها.

كثير من المسلمين وأحياناً الدعاة، يظن أن انتصار الإسلام، -سواء في عهد النبوة أو بعدها-، جاء بسهولة، ولم يمر بعثرات ومحطات أمام الصعوبات التي كانت تعتري مسيرة الدعوة والجهاد.. فلنسمح لأنفسنا أن نقلّب صفحات التاريخ، لنرى كيف كان موقف الرسول ﷺ وأصحابه ومن تبعهم بإحسان، كيف كانوا يواجهون هذه العقبات بكل ثقة بالله ووعده، وثقة بانتصار الإسلام في نهاية المطاف.

إن ما حصل لرسول الله ﷺ والصحابة حين رجعوا عن أبواب الطائف، بعد أن حاصرهم المسلمون بضعاً وعشرين ليلة، لم ينل من عزيمتهم شيئاً، رغم ما نال من الصحابة ما نال من القتل والإصابات. ومع هذا كان عنصر الثقة بنصر الله والتوكل عليه حاضراً.

- لقد استغرقت الفترة الواقعة بين القادسية وبين فتح (نهاوند) أقدم مدن العراق، سبع سنوات بين كر وفر ونصر وهزيمة. ومع ذلك لم ينل من عزيمتهم وثقتهم بالله وصبرهم شيئاً.

- لقد وقف الصحابة والتابعون أمام حصون (تستر- مدينة الهرمزان) سنتين، بعد أن خاضوا مع الكفار ثمانين معركة، وبعد أن استشهد خيار الصحابة فيها، منهم البراء بن عازب، ومجزأة بن ثور. ومع هذا لم ينال من عزيمتهم ولا ثقتهم بالله شيئاً.

الأساس الثاني عشر: خطورة العلم بلا عمل والقول بلا فعل [1]

حاجة البشرية للمثال الواقعي:

إن الذي يحتاجه المسلمون خاصة، والبشرية عامة، بقعة أرض يمثل عليها الإسلام، فإذا وجدت هذه البقعة من الأرض ووجد فوقها مسلمون يطبقون دين الله تطبيقاً صحيحاً فوقها على أنفسهم، حينئذ يدخل الناس في دين الله أفواجاً. وعلى سبيل المثال، لو أن شعوب أوروبا وأمريكا وكثير من الشعوب رأت نموذجاً إسلامياً، لوجدنا الناس يتهافتون على الدخول في الإسلام، بعد أن عانت هذه الشعوب ما عانت من القلق والتعب والضياع والتشتت، والانغماس في الشهوات والمخدرات والكحول والحيرة التي تمزق أنفسهم.

إن هذه البشرية اليوم عموماً تبحث عن المنقذ لها، لقد هربت إلى الكنيسة فما وجدت فيها منقذاً لها، ثم هربت إلى الشيوعية فزادتها ضنكاً وقلقاً وفقراً وحيرة، وجربت الرأسمالية فما وجدت فيها علاجاً ناجعاً، والسبب بسيط، وهو أن العلاج لا يوجد في الأرض أبداً إلا بيد فئة واحدة من الناس، وهم المسلمون؛ لأن الله سبحانه حفظ دين الإسلام من التشويه والتغيير والتبديل، حتى يبقى معيناً يَرِدُه المرضى فيشربون من هذا المعين الصافي فيشفون. فنحن المسلمون وحدنا الذين نملك علاج

---

1) المراجع:

1- في التربية الجهادية والبناء ج1.
2- في ظلال سورة التوبة.
3- عشاق الحور.
4- في خضم المعركة.
5- في الجهاد فقه واجتهاد.

البشرية جمعاء، ولكن بشرط واحد، وهو أن نتمسك بأصول هذا الدين (الكتاب والسنة)، ونطبقه على أنفسنا. فيرى الناس المثل الأعلى لهذا الدين في واقع الحياة، حينها يدركون عظمة دين الله، ويردون هذا المعين للعلاج من أمراضهم المستعصية.

نحن بحاجة ماسة إلى أمثلة واقعية لهذا الدين، وما دخلت أندونيسيا والملايو وجزر الفلبين إلا بعد أن رأت المسلمين يمثلون دين الله في واقع الحياة، عن طريق بعض التجار، دون أن تصلهم جيوش المسلمين.

وأفضل طبقة يمكن أن تقدم هذا الدين ممثلاً في واقع الحياة، هم العلماء العاملون، الذين يطبقون دين الله عليهم قبل أن يعلموه للناس. ومع الأسف فإننا نجد اليوم أكثر المسلمين تفلتاً من الأوامر الشرعية هم الذين يدرسون الشريعة الإسلامية؛ لأن كثرة الثقافة بدون عمل إنما هي قسوة للقلب، لأنهم أقدر الناس على معرفة المخارج من الأوامر الربانية وتلمس الرخص، يعرفون كيف يتخلصون من العزائم والأوامر الإلهية. ولذلك تجد هؤلاء العلماء -غالباً- أقل الناس ورعاً، لأنهم يدرسون الأوامر الربانية ويعلمونها الناس، ثم لا يطبقونها على أنفسهم، وبالتالي فهم أشد على دين الله من الشياطين والجهلة، والسبب؛ لأن قولهم غير عملهم، وظاهرهم غير باطنهم، والباطن مهما خفي على الناس مدة من الزمن، فلا بد أن يكشف للناس ولو بعد حين، وحينها يصدم الناس بهذه النوعية من العلماء، فيصيبهم نوع من الصدمة بهذا الدين؛ لأنَّ العوامّ يرون الدين من خلال العلماء، وربما يرتد الناس ليبحثوا عن منقذ لهم في مذاهب وأفكار كالشيوعية والعلمانية وغيرها.

وقد حذر الله سبحانه من العلم دون العمل به، وكثرة الثقافة دون التطبيق، فقال سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ

كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾[1]، ومع الأسف فإن هذه الفئة من العلماء – الذين يعلمون ويعلمون دون عمل بهذا العلم – هؤلاء يتخذهم الطواغيت والسلاطين سياطاً على ظهور المسلمين، بل يتخذهم كل طاغوت أو سلطان سوراً حماية لهم، فيقوم هؤلاء العلماء بدور المضلل للعوام من المسلمين، ويزينون للطغاة أعمالهم، ويبينون للناس أن هؤلاء الحكام على حق في أفعالهم، وكل من ينتقدهم من المصلحين والدعاة فهو على باطل، والفتاوى التي ترضي الحكام والطواغيت جاهزة في جعبتهم.

كم قتل وكم سجن وكم عذب من الدعاة والمصلحين بسبب فتاوى هؤلاء العلماء الضالين. فهذا سيد قطب وعبد القادر عودة ومحمد فرغلي ويوسف طلعت، -وهم من خيرة أبناء مصر- قُتلوا جميعاً بفتوى من شيخ الأزهر، بعد أن طلب منه عبد الناصر أن يفتي بالإخوان المسلمين...!!، فكتب كتاباً كاملاً سماه (حكم الدين في إخوان الشياطين)، فأفتى بتكفير عملاق الفكر الإسلامي سيد قطب، واستدل شيخ الأزهر في كتابه على وجوب قتل الإخوان بقوله تعالى:﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾[2]...!!

1) (سورة الحديد:١٦)

2) (سورة المائدة: ٣٣)

تصور معي أخي الكريم، إلى هذا المستوى من الضلال الذي وصل إليه شيخ الأزهر الذي كان من المنتظر أن يكون أكبر مدافع عن الحق والدين...!! يصل إلى درجة من عمى البصيرة أن يستدل بهذه الآية على قتل خيرة أبناء مصر في ذلك الزمان...!! لإرضاء نزوات طاغية مصر، مقابل لعاعة من لعاعات الدنيا الدنية.

ولقد كان أمثال هؤلاء من العلماء طيلة العصور الإسلامية والحقبات -التي مر بها هذا الدين- أكبر الدعائم التي يعتمد عليها الحكام الظلمة. إن فتاوى هؤلاء العلماء جاهزة لكل شيء يريده الطاغية، فإذا أراد الطاغية أن يقنع الناس بالاشتراكية تصدر منهم الفتاوى بأن خديجة بنت خويلد كانت أم الاشتراكية، وأنَّ أبو ذر سيد الاشتراكيين، فلما هلك عبد الناصر داعية الاشتراكية في مصر، جاء بعده السادات وقرر إلغاء الاشتراكية ومحاربتها، فأصدرت الفتاوى بأن الاشتراكية كفر وخروج من الاسلام. والفتاوى صدرت من نفس الأزهر الذي خرجت منه الفتاوى السابقة.

وإذا خافت أوروبا من الشعب المصري أن يتكاثر المسلمون ويصبح العدد كبيراً ويشكلوا خطراً على اليهود، عندها يطلب من هؤلاء العلماء أن يصدروا الفتاوى التي تحقق الهدف، فتصدر الفتاوى بأن تحديد النسل أمر شرعي ومصلحة شرعية، فيظهر هؤلاء العلماء على شاشات التلفاز، ويستدلون بالحديث: (كُنَّا نَعْزِلُ وَالْقُرْآنُ يَنْزِلُ، لَوْ كَانَ شَيْئًا يَنْهَى عَنْهُ لَنَهَانَا عَنْهُ الْقُرْآنُ...)[1]، فيفتون بأن تحديد النسل أمر شرعي، ومنصوص عليه شرعاً، ولولي الأمر أن يتخذ الإجراءات اللازمة والاحتياطات التدبيرية والوقائية لمنفعة المجتمع...!! وإذا أرادت الدولة أن تستورد اللحوم من الدول الشيوعية، يأتون بهؤلاء العلماء ليفتوا لهم، بأن الرسول ﷺ قال في مثل هذه الحالة:

1) (مسلم، برقم 1440، 1065/2)

(سَمُّوا اللَّهَ عَلَيْهِ وَكُلُوهُ)[1]، والقاعدة الشريعة تقول: (الأصل في الأشياء الإباحة)، فيأكل عشرات الملايين من الناس الميتة بهذه الفتاوى من أجل ابتسامة من الرئيس...!!

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾[2]، لقد رأيت صورة الرئيس على باب الأزهر طولها أكثر من متر ونصف، وتحتها مكتوب قوله تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾[3]، فهؤلاء العلماء مصيبة على الأمة، لأنهم درسوا العلم من أجل الدنيا والشهادة، ولذلك أخطر المعاهد في البلاد هي كليات الشريعة التي تعطي العلم للمتعلمين مجرداً عن العمل. هذه الفئة في غاية من الخطورة على دين الله ﷻ، لأن هؤلاء غداً سيحملون أعلى الشهادات (ماجستير ودكتوراه) ثم يعودون إلى بلادهم، ويستلمون التوجيه في التلفزيون والإذاعة، ثم تنزل كتبهم في الأسواق، وبعدها يصبحون من كبار العلماء في بلادهم، ويترقون في مراتبهم وحالتهم الاقتصادية والاجتماعية، ثم تتوسع حالتهم المعيشية والاقتصادية. وعندها يبيع دينه بأبخس الأثمان. فيصبح أداة بيد الحاكم ومن حاشيته، يرتمي على أبواب الطغاة. يقول حذيفة بن اليمان ﷺ: (إذا رأيتم العالم بباب السلطان فاتهموا دينه، فإنهم لا يأخذون من دنياهم شيئاً إلا أخذوا من دينكم ضعفين)، لأنهم يساومون على

1) (البخاري، برقم 2057، 54/3)
2) (سورة الأعراف: ١٧٥- ١٧٦)
3) (سورة النمل: ٧٩)

دين الناس؛ لأن الحاكم ما قربه إلا لأنه يتكلم باسم دين الله ولأن الناس يأخذون منه، فهو يملأ بطنه حتى يتكلم بما يريده الحاكم. ثم يبرر هؤلاء العلماء لأنفسهم، ويبرر لهم الشيطان، فيقولون: نحن نكون حوله حتى لا يكون حوله الفساق والفجار...!! ولا يعلم بأنهم أكثر فسقاً وفجوراً منهم...!! إن هؤلاء العلماء لا يعلمون أن أحدهم – بسيارته الفارهة التي يركبها- يبيع الأمة بكاملها، وبراتبه الذي يتقاضاه يبيع دين الله ودنيا الناس...!!

يقول الأوزاعي: (شكت النواويس – مقابر النصارى- إلى الله من نتن جثث الكفار، فأوحى الله إليها: إن بطون علماء السوء أشد نتناً من جيف الكفار). ومن هنا فإن حكومات الطواغيت تجد أن أسهل الفرائس والصيود هم هؤلاء، الذين يتثقفون بدين الله سبحانه ولا يعملون به؛ لأن الفتاوى عندهم جاهزة، لا يعجز أحدهم أن يبحث عن النصوص ويلصقها بهذه الأوضاع، ليثبت شرعية هذه الأوضاع القائمة، فيتقبلها الناس، ويثبت أن الذي يحاول الخروج على هذه الأوضاع هم خارجون عن دين الله.

ومن كان أمثال هؤلاء من علماء الكنيسة هم السبب في كفر أوروبا بالدين وانحيازها إلى الإلحاد. ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾[1].

وكثير من الناس – حين يرى لكتب ابن تيمية وكلمات سيد قطب، هذا الأثر البالغ في نفوس الشباب والأجيال – لربما يعجب من السبب، وهم لا يعلمون أن ابن تيمية رحمه الله قضى نحبه في أعماق سجن القلعة سنة 728هـ بعد أن حورب، ثم أحرقت كتبه،

1) (سورة البقرة: ٧٩).

وبعد ستة قرون ونيف يبث الروح والحياة من جديد، وتعاد طباعة كتبه بكثرة وتوزع على العالم، حتى لا تكاد مكتبة إسلامية تخلو من كتبه، وأصبح ابن تيمية الشيخ والمقتدى به والمثل الرائع الذي يحتذى به. وهم لا يعلمون أيضاً أن سيد قطب ﷺ قد مضى بإعدامه في غرفة مظلمة في سجن الاستئناف في القاهرة على يد عبد الناصر، ولا يعلم أحد حتى الآن مكان قبره...!! وقد ظن الدعاة والمخلصون أن استشهاده كان خسارة كبيرة للجيل والدعوة الإسلامية، وإذ باستشهاده يعطي دفعة قوية للحركة الإسلامية في هذا العصر، حتى طبع كتاب (في ظلال القرآن) سبع مرات في عام واحد...!! فهؤلاء الذين ساروا بالعمل مع الثقافة معاً خطأً متلازماً، لا يفصلون بين الثقافة والعمل، أو بين الكلمات والحركة بها في واقع الحياة.

ولذلك فإن التربية ليست ثقافة ومعلومات تحفظ في الذاكرة، وإنما التربية تتم من خلال حركة بهذا الدين، ومن خلال العمل به، وليس من خلال الثقافة المكتبية؛ لأن كثرة الثقافة المكتبية تؤدي إلى قساوة في القلوب، وجلافة في الطبع، وفتح المنافذ للتفلت والتخلص من الأوامر الشرعية، والإسلام لم يكن في يوم من الأيام نظرية ثقافية، وإلا كان بالإمكان أن ينزل القرآن في مكة دفعة واحدة، فيحفظه بعض الصحابة في أشهر. ولكن الله سبحانه أنزله كما قال: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾[1]، فالفرق مقصود والمكث مقصود؛ لأن تربية الأمم لا تتم بين عشية وضحاها، ومن هنا فإن الشباب الذين لم يتربوا تربية طويلة وجاءوا للجهاد يتعبوننا أكثر من الشباب الذين تربوا تربية طويلة؛ لأن نفوسهم قد تشربت هذا الدين

1) (سورة الإسراء: ١٠٦)

تدريجياً، وطبقوه على أنفسهم تدريجياً، ولذلك صار عودهم صلباً، وصاروا أكثر احتمالاً للتكاليف، ومن أصعب هذه التكاليف تكاليف الجهاد.

نحن نريد أناساً تربوا على التوحيد، تربوا على الخوف من الله سبحانه، يخافون من الدرهم إذا كان فيه شبهة أكثر مما يخافون من الأفعى والعقرب، نريد أناساً أمثال عمر بن عبد العزيز، يقوم بأعمال لصالح المسلمين، حتى إذا صار الحديث عن أسرته أطفأ المصباح. نريد أناساً كأمثال أبي بكر ﷺ، عندما أعطى ابنه حلوى فأكلها، وعلم بعدها أنها حلوى كاهن، وضع إصبعه في فمه ونكسه حتى خرجت من بطنه.

نريد أمثال الصحابة، كان أحدهم إذا فعل فاحشة جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: طهرني، يعني اقتلني حتى أطهر. نريد شباباً ينظرون إلى الجنة وإلى النار ماثلة أمام أعينهم، كلما مر بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها، وكلما مر بآية من ذكر النار زفر زفرة كأن جهنم بين أذنيه.

أما الثقافة والكلام بدون عمل، والغرور والعجب بعدة أسطر يحفظها أحدهم، أو بكتاب قرأه، ثم لا يعجبه بعدها أحد، فلا خير فيه ولا في علمه؛ لأن العجب والغرور محبط للعمل.

فقه الحركة وفقه العمل:

وبعد طول عناء في هذا الطريق وصلت إلى حقيقة جازمة حاسمة، أن فهم دين الله سبحانه لا يتحقق للمرء من خلال الدراسة النظرية، والعيش بين الأوراق بطريقة باردة، بعيداً عن المحن والابتلاءات والجهاد، والصراع الطويل بين الحق والباطل، فأدركت: أن الأفق الذي يصل إليه المرء في هذا الدين يوازي التضحيات التي قدمها؛ لأن هذا الدين

لا يفهم إلا من خلال الجهاد به لإقراره واقعاً في الأرض، والذين يقضون حياتهم بين صفحات الكتب وأراق الفقه، لا يمكن أن يدركوا طبيعة هذا الدين إلا إذا جاهدوا لنصرته. وهنا ننقل كلام – عملاق الفكر الإسلامي – سيد قطب ﷺ لأهميته في هذا الموضوع، عند قوله تعالى:﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[1]، يقول معلقاً عليها: إن الفرقة التي تتفقه هي الفرقة النافرة للجهاد، حتى تتفقه هذه الطائفة في الدين بالنفير والخروج والجهاد والحركة بهذه العقيدة، وتنذر الباقين من قومها إذا رجعت إليهم، بما رأته وما فقهته من هذا الدين في أثناء الجهاد والحركة. وهذا الوجه الذي ذهبنا إليه –وله أصل من تأويل ابن عباس ﷺ–، ومن تفسير الحسن البصري، واختاره ابن جرير، وقول لابن كثير– إن هذا الدين منهج حركي لا يفقهه إلا من يتحرك به، فالذين يخرجون للجهاد به هم أولى الناس بفقهه، بما يتكشف لهم من أسراره ومعانيه، وبما يتجلى لهم من آياته وتطبيقاته العملية في أثناء الحركة به، أما الذين يقعدون فَهُم الذين يحتاجون أن يتلقوا ممن تحركوا؛ لأنهم لم يشاهدوا ما شاهد الذين خرجوا، ولا فقهوا فقههم، ولا وصلوا من أسرار هذا الدين إلى ما وصل إليه المتحركون، وبخاصة إذا كان الخروج مع رسول الله ﷺ، والخروج بصفة عامة أدنى إلى الفهم والتفقه... والتجارب تجزم بأن الذين لا يندمجون في الحركة بهذا الدين لا يفقهونه، مهما تفرغوا لدراسته في الكتب دراسة باردة، وأن اللمحات

1) (سورة التوبة: ١٢٢)

الكاشفة في هذا الدين إنما تتجلى للمتحركين به حركة جهادية لتقريره في حياة الناس، ولا تتجلى للمستغرقين في الكتب العاكفين على الأوراق.

إن فقه هذا الدين لا ينبثق إلا في أرض الحركة، ولا يؤخذ عن فقيه قاعد حيث تجب الحركة....إن الفقه الإسلامي وليد الحركة الإسلامية، فقد وجد الدين أولاً ثم وجد الفقه، وليس العكس هو الصحيح... إن الحركة بهذا الدين هي التي أنشأت ذلك الفقه، والحركة بهذا الدين هي التي حققت نموه، ولم يكن قط فقهاً مستنبطاً من الأوراق الباردة، بعيداً عن حرارة الحياة الواقعة، من أجل ذلك كان الفقهاء متفقهين في الدين، يجيء فقههم للدين من تحركهم به، ومن تحركه مع الحياة الواقعة لمجتمع مسلم حتى يعيش بهذا الدين، ويجاهد في سبيله، ويتعامل بهذا الفقه الناشئ، بسبب حركة الحياة الواقعة.... إنه جهل فاضح بطبيعة هذا الدين أن يفهم أحد أنه يستطيع التفقه في هذا الدين وهو قاعد، يتعامل مع الكتب والأوراق الباردة، ويستنبط الفقه من قوالب الفقه الجامدة، إن الفقه لا يستنبط من الشريعة إلا في مجرى الحياة الدافق، وإلا مع الحركة بهذا الدين في عالم الواقع [1].

والذين يزاولون فقه الأوراق، وهم ينقلون العلم عن السلف الصالح، ينقلونه بمعزل عن الواقع الذي كانوا يعيشونه، يظنون أنهم كانوا مستقرين آمنين مطمئنين في بلادهم يؤلفون الكتب ويكتبون العلم، ولا يعلمون –وهم ينقلون عن الصحابة – أنهم كانوا في معارك لا تتوقف، أو جو من الرعب والرهب في قتال وحصار وغزو أعداء الله وشبح الموت، يتراءى أمام نواظرهم صباح مساء. فقد روى نافع عن ابن عمر أنه أقام بأذربيجان ستة أشهر يصلي ركعتين، وقد حال الثلج بينه وبين الدخول)، وقال أنس

1) (في ظلال القرآن 3/1735-1736).

ﷺ: (أقام أصحاب النبي ﷺ (برام هرمز) سبعة أشهر يقصرون الصلاة) وقال الحسن: (أقمت مع عبد الرحمن بن سمرة (بكابل) سنتين يقصر الصلاة ولا يجمع)، فقد كان الجميع يعيشون المعركة في خضم متلاطم من القبائل والأعداء يتحفزون للانقضاض عليهم والبطش بهم. فهل كان هؤلاء العلماء والفقهاء من السلف الصالح يكتبون العلم ويدرسونه في جو من النعيم وبين أطباق المأكولات والمشروبات والمبردات؟!! لقد نقل عن بعض علماء السلف الصالح أنهم كانوا إذا استشكلت عليهم مسألة فقهية يقولون: اسألوا أهل الثغور فإنهم أفقه وأعلم. ويقول ابن تيمية ﷺ: (الواجب أن يعتبر في أمور الجهاد برأي أهل الدين الصحيح، الذين لهم خبرة بما عليه أهل الدنيا، دون الذين يغلب عليهم النظر في ظاهر الدين فلا يؤخذ برأيهم..).

الأساس الثالث عشر: (القاعدة الصلبة) وخطر العمل بلا علم [1]

كل مبدأ من المبادئ لا بد له من طليعة تحمله، وتتحمل -وهي تشق طريقها إلى المجتمع - تكاليف غالية وتضحيات باهظة، وما من عقيدة من العقائد -أرضية كانت أو سماوية -إلا واحتاجت إلى هذه الطليعة التي تبذل في سبيل نصرة مبدئها كل ما تملك، وتتحمل لأواء الطريق الصعب الطويل، حتى تصل إلى إقرارها في واقع الحياة، إذا كتب الله لها التمكين والظهور، وهذه الطليعة تمثل (القاعدة الصلبة) للمجتمع المأمول.

وما لم تجد العقيدة- حتى لو كانت من عند رب العالمين- هذه الطليعة المضحية التي تبذل كل ما تملك من أجل إظهار عقيدتها فإن العقيدة ستولد ميتة، وتوأد قبل أن ترى النور والحياة. وشعار حامل العقيدة من أبناء هذه الطليعة لا بد أن يكون ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[2]، وما كنا ندرك أبعاد التركيز على طول فترة التربية المكية كما ندركها الآن واضحة جلية، لا لبس فيها ولا غبش، بعد أن خضنا غمار الجهاد الأفغاني، وللعام السابع والحمد لله، ولقد سبرت أعماق المسألة، فوجدت التربية العقدية الطويلة هي

---

1) المراجع:
1- في ظلال سورة التوبة.
2- عشاق الحور.
3- في خضم المعركة.
4- في التربية الجهادية والبناء ج1.
5- موسوعة الذخائر العظام ج772/2، ج375/3.

2) (سورة الأعراف: ١٩٥ – ١٩٦).

أساس المجتمع الإسلامي وعموده، وبدونها لا يمكن أن يقوم المجتمع الرباني، وإن قام فإنه سيكون هيكلاً هشاً سرعان ما ينهار لهبة ريح أو مرور عاصفة.

وخرجت بقاعدة أساسية لبناء المجتمع الإسلامي، وهي: إنه لا يمكن للمجتمع الإسلامي أن يقوم بدون حركة إسلامية تشب على نار المحنة، وينضج أفرادها على حرارة الابتلاء، وهذه الحركة تمثل الصاعق الذي يفجر طاقات الأمة، ويقوم جهاد طويل تمثل الحركة الإسلامية دور القيادة والريادة والإمامة والإرشاد، ومن خلال الجهاد الطويل تتميز مقادير الناس، وتبرز طاقاتهم وتحدد مقاماتهم، وتتقدم قادتهم لتوجه المسيرة وتمسك بالزمام، وهؤلاء بعد طول المعاناة يمكن الله لهم في الأرض ويجعلهم ستاراً لقدره، وأداة لنصرة دينه.

وإن حمل السلاح قبل التربية الطويلة للعصبة المؤمنة يعتبر أمراً خطيراً؛ لأن حملة السلاح سيتحولون إلى عصابات تهدد أمن الناس وتقض عليهم مضاجعهم. ومن هنا فالذين يشككون في الجماعات الإسلامية، هؤلاء يهدمون الإسلام وهم لا يعلمون؛ لأن الجماعات الإسلامية أساس قطعي لا يمكن تجاوزه أبداً، والذين يريدون أن يتجاوزوا مرحلة البناء والابتلاء ومرحلة التربية الطويلة في الدعوات الإسلامية، هؤلاء لا يدركون كيف قام هذا الدين أول مرة، وإذا أرادوا حمل السلاح مباشرة وقبل أن يتلقوا قسطاً من التربية، هذا السلاح الذي بأيديهم سوف يصوب بعدها إلى المسلمين بمجرد أن نزغت نزغات شياطينهم، حفاظاً على ملكهم ومجدهم.

البناءوالأساس:

إن بناء المجتمع الإسلامي الذي تنشده الحركات الإسلامية أشبه ما يكون ببناء عمارة أو بنيان ضخم، فإذا كان أساسه من ملح ضعيف فسرعان ما ينهار على رؤوس أصحابه إذا بدأ البنيان يرتفع، طابق فوق طابق، وأما إذا كان أساسه عميقاً قوياً متيناً احتمل البناء فوقه، وكلما ازداد الأساس صلابة كلما احتمل علو الطوابق فوقه.

والبناء لا يمكن أن يتم إلا من خلال حركة إسلامية؛ لأن الحركة الإسلامية ضرورة قطعية لا يمكن تجاوزها، ومرحلة أساسية لا يمكن تغافلها، إلا إذا تغافلنا بناء الإسلام نفسه.

ومن هنا فلن يقوم الإسلام إلا بجماعة إسلامية، والجماعة تربي أفرادها، ثم تكون هذه الجماعة فتيلاً وصاعقاً مشعلاً لطاقات الأمة، ثم تتفجر هذه الطاقات، ويمتد الجهاد على طول الطريق، وبعد محن طويلة وابتلاءات وأشلاء ودماء تروي الطريق الطويلة المريرة، بعدها يمكن الله للفئة الباقية على قيد الحياة، ويجعلهم الله ستاراً لقدره وأمناء على تنفيذ شريعته، لأن الذين سيمسكون بزمام الحكم ستوضع بين أيديهم أموال الأمة، وستقف أمامهم الملايين تحييهم. فهؤلاء إن لم يكونوا أمناء على الأعراض والأموال والدماء، فستجري دماء المسلمين بأيديهم، وستنتهك أعراض المسلمين على أيديهم، ولن تبقى قيمة من القيم إلا انتهكت باسم المحافظة على الحكم والأمن والنظام والإسلام.

ولو نظرنا نظرة تفحص في تاريخ الصحابة، لوجدنا أنهم ما كانوا يولون التابعين الإمارة والقيادة، إنما كانت القيادة حكراً على السابقين الأولين من الصحابة، ونحن لم نر قائداً في أيام الخلفاء الراشدين من التابعين بوجود الصحابة؛ لأن الصحابة هم الذين يحمون المجتمع، كما أن العملة الصعبة والذهب الأصفر يحمي الأوراق المتداولة بين أيدي الناس. فكانوا حريصين كل الحرص على هذه العملة الصعبة من الصحابة. وتقرأ في التاريخ: شهد هذه المعركة مائة بدري.... لم يبق من أهل بدر أحد.... بقي من أهل أحد فلان وفلان...بقي من أهل بيعة الشجرة فلان.. هذا كان منهج السابقين من أهل هذه الملة. والسبب في ذلك أن هذه العملة الصعبة هي التي تحمي ملايين الأوراق

التي تتداول في الأسواق، فإذا فقدت هذه العملة الصعبة والذهب المكنوز، فإن العملة الورقية المتداولة ستنهار.

ولقد رأينا في تجربة الحركة الإسلامية في أفغانستان مثالاً على ذلك، والتي ينبغي على الحركات الإسلامية دراسة هذه التجربة بعمق وتمهل وتؤدة، رأينا كيف أن بعض الجبهات في أفغانستان ممن كان يقودها أناس لم يتربوا تربية إسلامية ولم يدخلوا في حركة إسلامية، بعد أن حققوا انتصارات، بعد ذلك بين عشية وضحاها كيف انقلبوا جنود للروس وعملاء لهم كمليشيات ينفذون مخططات الأعداء. ولذلك دائماً أسأل عن الجبهات في أرجاء أفغانستان: من القائد في الجبهة الفلانية والفلانية؟ فإن قالوا لي: هو من أبناء الحركة الإسلامية تهدأ نفسي ويطمئن قلبي على مصير الجبهة؛ لأنه إذا لم يكن من أبناء الحركة الإسلامية لا نستطيع أن نطمئن على مصيرها وعاقبتها.

وهذه الفئة من الشباب العرب القادمين من بلادهم، ومن شتى بقاع الأرض، ممن نفروا للجهاد، وضحوا بما يملكون، وتركوا الرغد والعيش والترف، وجاءوا يبغون الموت في سبيل الله والتضحية في سبيل إقامة مجتمع إسلامي راشد، هؤلاء الشباب، وهذه الكوكبة من الشهداء منهم، سيكونون منارات – بإذن الله – للأجيال القادمة التي ستشيد المجد وتعيد دين الله إلى واقع الحياة، ولا شك أنهم مثل يقتدى بهم، وهم حجر أساس متين مع بقية إخوانهم من الشهداء الأفغان -الذين سبقوهم على هذا الطريق- سيمكن الله -بهم- للمؤمنين في الأرض.

إن بناء المجتمع الإسلامي الذي ينشده المسلمون لن يقوم إلا بأمثال هؤلاء الذين ضحوا بما يملكون من الدنيا، كما ضحى غيرهم من قبلهم.

الخطوط العريضة لتربية العصبة المؤمنة والطليعة الرائدة:

1- لا بد أن تشب في أتون المحن وأمواج البلاء.
2- أن تكون القيادة المربية تشاركها مسيرة الابتلاء والعرق والدماء، فلا بد أن تكون القيادة هي المحضن الدافئ الذي تنمو تحت أجنحته هذه الأفراخ، ولا بد من طول مدة الحضانة والتربية.
3- ولا بد لهذه الطليعة أن تترفع عن متاع الدنيا الرخيص، ويكون لها طابع متفرد من حيث الزهد والتقشف.
4- وكذلك يجب أن تكون ممتلئة باليقين الراسخ بالعقيدة، مع الأمل العريض الذي يملأ جوانحها بانتصارها.
5- ولا بد من الإصرار والعزيمة على مواصلة السير مهما طال الأمد.
6- وزاد الطريق من أهم ضرورات المسيرة، وهو النوافل والصبر والصلاة.
7- الولاء والبراء.
8- لا بد أن تدرك المخططات العالمية ضد الإسلام.

وهناك أسباب رئيسية لهذه التربية الطويلة:

1- لأن طول التضحية وفداحة التكاليف مع طول الزمن، يؤدي إلى الملل واليأس، إلا إذا كانت هذه التربية العميقة هي صمام الأمن لهذه المسيرة.
2- لأن الإغراءات والمساومات على الطريق مستمرة، ولكنها كلما اقتربت من النصر تزداد العروض ومحاولات الاحتواء، فلا بد أن تكون القيادة عناصر غير قابلة للذوبان.
3- لأن هذه القيادة إذا مكن الله لها في الأرض، هي التي ستوضع بين أيديها الكنوز، وهي التي ستشرف على حماية أموال الناس وأعراضهم ودمائهم.

ولو تتبعنا التربية النبوية لجيل الصحابة الكرام، لوجدنا العناصر الثمانية الآنفة الذكر بارزة من خلال هذه التربية لهذا الجيل الفريد، ومن هنا عندما ارتدت الجزيرة العربية بأسرها، قامت هذه القاعدة الصلبة وأرجعتها إلى الاسلام.

وخرجت بيقين جازم لا يتزعزع بخطورة تولي قيادة الأمم من أناس لم يتمرسوا بهذا الدين من خلال معاناة طويلة، وبذل جهد ناصب وتضحيات باهظة، ورأيت كيف تحمى الأمم وتنقذ الشعوب بفرد من أبنائها، وكيف يمكن للأمة كلها أن تباع بجلسة على مائدة خضراء، أو بكأس راح في ليلة حمراء أو ابتسامة من ثغر فاتنة.

وأيقنت أنه لا نجاة للأمم إلا بأن تسلم قيادها وتسلم مقادها لشباب مسلم قد شبوا على نار الأسى واكتحلوا في أتون المعارك ونضجوا على حرارة المعاناة وعلى هدي الكتاب ونور السنة، من خلال المواجهة اليومية بهذا الدين مع أعدائه، فمن خلال التكاليف التي يقدمها المسلم لهذا الدين يصلب عوده وتنضج نفسيته.

وتأكدت أن الأفق الذي يصل إليه المرء في هذا الدين يوازي التضحيات التي قدمها، وأن مستوى المسلم ونضجه يسير جنباً إلى جنب مع التكاليف التي يبذلها، وأن هذا القرآن لا يفتح أسراره لفقيه قاعد، وهذا الدين لا يسبر أغواره ولا يدرك معانيه حفظة المتون والحواشي ممن لا يتحركون به ولا يعيشون لنصرته.

وخرجت بيقين جازم وعلم حاسم أن الجهاد بالنفس ضرورة حياتية للمسلم، حتى يتحرر من الخوف ويمزق حجاب الوهم والرعب الذي يغتصب به الطواغيت حقوق الأمم، ويبتزون أموالهم وينتهكون حرماتهم ويدوسون مقدساتها ومثلها.

وأدركت أن سر رعب الطواغيت من الحركات الإسلامية الخالصة، وهلعهم من أبنائها الصادقين، وذلك لأنهم يتمردون على الدنيا التي يملكها الطغاة، ويدوسون المتاع الرخيص الذي بين أيدي الجبابرة، والذي من خلاله يجمعون القطيع ويسوقونه إلى مذابح شهواتهم، قرابين رخيصة، إنها عناصر فريدة لا تباع في سوق النخاسة، ولا تذوب في حوامض الجاهلية، فتحافظ على أصالتها ونقائها ومثلها في أي جو عاشت، ومع أي قوى التقت.

لقد وجدت أن العلماء المخلصين وأبناء الدعوة الصادقين هم صمام الأمان لدماء الناس وأعراضهم ومبادئهم وأموالهم.

وأيقنت أكثر من أي زمن مضى اشتراط العلم والتقوى لمن يلي أمور المسلمين أو يتصرف في شؤونهم.

ولقد رأيت الأيدي التي تريد أن تعبث بالجهاد الأفغاني وبأهدافه، وتود أن تختلس ثماره أو تغتصب بركاته، جهاراً نهاراً، ورأيت الدنيا بأسرها تقف بخيلها ورجلها وهيلها وهيلمانها وثقلها، تريد أن تحول بين الصادقين وبين الوصول إلى سدة الحكم، فوجدوا حفنة من العلماء الصادقين، ومن أبناء الدعوة المخلصين -الذين تربوا على هذا الدين، وتلقوا قسطاً من العلم الشرعي- يقفون كالشم الرواسي ينافحون عن عزة هذا الجهاد وشرف هذا الشعب الأبي الكريم، ولا يتزحزحون قيد أنملة عن هدفهم الكبير، وهو إقامة دين الله في الأرض.

لقد وقفت هذه الحفنة الصادقة، التي يمثل رأس حربتها التي أغمدت في فؤاد الكفر مجموعة – ممن قادوا أبناء الحركة الإسلامية في أفغانستان – وقفت أمام هذه المؤامرات.

معالم في تجربة الحركة الإسلامية في أفغانستان:

أولاً : التجربة الإسلامية في داخل أفغانستان تجربة اجتماعية عميقة ضربت جذورها في أعماق المجتمع، بينما تجارب الحركة الإسلامية في العالم الإسلامي بقيت تعيش في مجتمع ضيق نظيف صاف (داخل محيط الحركة الإسلامية وأبنائها)، ولم يجبروا على الاحتكاك بالناس، باستثناء فئة قليلة من خلال تجاربهم في داخل السجون، أما في داخل أفغانستان فقد تشكلت الجبهة من الشعب كله، فدخلها النظيف وغير النظيف، ودخلها المسلم العادي ودخلها أولياء لله، ودخلها الناس المفرطون والناس الملتزمون، وبالتالي فهي تشكلت من مجموع الشعب كله. وعانى (قادة المجاهدين) عبر هذه السنوات الطويلة من خلال قيادتهم ما عانوا من مرارة الطريق. واصطدموا بأسئلة محيرة: كيف نستطيع أن نرفع المستويات المتدنية إلى أفق المستويات العالية أو قريباً منها؟! كيف يمكن أن نصنع من هذا المزيج المختلط العجيب الغريب (المفرط منهم والمقصر وتارك النوافل، والمقصر في صلاة الفجر، والمتعاطي للدخان، والسارق والزاني، ومنهم الصالح التقي قائم الليل والعابد المحافظ)؟!! كيف نستطيع أن نصنع من هذا الخلط جبهة تقف أمام أشرس قوى الأرض سنوات طويلة؟ والحق فإن نجاح هؤلاء القادة في هذه المهمة الصعبة في جبهاتهم يعتبر إحدى الإيجابيات الناضجة التي حوتها تجربة الحركة الإسلامية في أفغانستان، فتهيأت لها هذه الإيجابية بطريقة لم تتهيأ لغيرها من الحركات الإسلامية.

ثانياً: ونحن ندرس (الصبر في القرآن والسنة)، ونحن نتعلمه في الحركات الإسلامية، لا تنطلق نواظرنا ولا يذهب خيالنا وعقولنا إلا للصبر على السياط في داخل سجون الطغاة والظالمين، بينما الصبر في داخل أفغانستان أخذ بعداً آخر، وأعطى تجربة أوسع

وأنضج وأعمق. فهو صبر على الرباط، والصبر على الرباط أشد من الصبر على السجون؛ لأن السجن يجد أنه أمر ليس له فيه حيلة وليس بيده فيه حكم، أما الصبر في الجبهات فهو بيده، يتركه متى شاء، فالصبر في داخل الجبهات صعب مرير، ومن هنا نجد الرباط في القرآن الكريم مسبوقاً بأمرين في الصبر﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[1]، فهي تجربة فريدة، وتجربة عميقة، وتجربة حية جدير بالحركات الإسلامية والعالم الإسلامي أن ينظروا إليها بعمق وتأمل وترو.

ومن الفروق بين تجربة الحركة الإسلامية في أفغانستان وغيرها من الحركات الإسلامية في العالم، أن تجربة الحركة في أفغانستان لم تعش طويلاً تحت ظلم الطاغوت وإذلاله، ولم تتحول فيها الغيرة والعزة مع الزمن إلى برود وجمود، بل بقيت الغيرة في أعماقها وفي أعماق أفرادها.

وفرق آخر بين تجربة الحركة الإسلامية الأفغانية وبين الحركات الإسلامية الأخرى، أن الحركة الإسلامية في أفغانستان لم تشارك في الدولة في الحكم، ولم يتغلغل أفرادها في مراتب الدولة ووظائفها، حتى يخافوا على وظائفهم، وحتى تخاف الحركة على مكاسبها، وتصبح توازن بين المصالح والمفاسد، مصالح بقاء الوظائف في أيدي الحركة الإسلامية، ومفاسد التضحية بها والوقوف في وجه الطاغوت، فلم تنل الحركة في أفغانستان منذ بدايتها حتى الآ ن شيئاً من الدنيا ومتاعها، فبقيت بعيدة عن الضغوط،

1) (سورة آل عمران: ٢٠٠)

بعيدة عن الإغراء، محافظة على نفسيتها وكلماتها التوجيهية دون ضغوط وأثقال على الكواهل.

ثالثاً: أكبر عقبة أمام الدول والطواغيت تواجههم في محاربة الإسلام هم أبناء الحركات الإسلامية، فهم الصخرة في وجوه الظالمين، تماماً كما تواجه دول العالم التي تتآمر على الجهاد وثماره في أفغانستان، فأبناء الحركة الإسلامية هم العقبة الكؤود أمام دول العالم في إحباط الجهاد وسرقة ثماره.

وعلى مستوى العالم الآن فإن أبناء الحركات الإسلامية هم العقبة في وجه الطواغيت، عندما يحاربون دين الله ﷻ، فوجدنا الدول الآن جاهدة ترمي الحركة الإسلامية كلها عن قوس واحدة، وتصوب سهامها في كل مكان، وهي تقول -خداعاً للعوام – نحن لسنا ضد الإسلام، إنما نحن ضد المتعصبين المتزمتين...!! كذلك كل مسلم يقول بأنني أريد الإسلام وأحب الإسلام لكنني لا أريد هؤلاء المتعصبين المتزمتين، إنما هو يحارب الإسلام دون علم؛ لأن التشكيك في الحركات الإسلامية تشكيك في الدين نفسه، وفي صلاحيته للعودة للحياة وللبناء وللاستمرار. وأعداء الإسلام يشككون في الحركات والدعوة الإسلامية حتى ييأس الناس من عودة الإسلام مرة أخرى إلى الحياة، وأقصر طريق لهدفهم هو التشكيك بالدعاة والحركات الإسلامية، فإذا شك الناس بهم يئسوا ولم يعد هناك محاولة للاستمرار والبناء والبقاء.

وهذه نفس المحاولات التي تجري الآن من العالم المعادي للإسلام ضد تجربة الحركة الإسلامية في أفغانستان .

رابعاً: أي حركة إسلامية الآن لا تستطيع أن تقيم وحدها الحكم الإسلامي؛ لأن الحركة الإسلامية -عادة- عددها قليل، والشعوب هي التي تكون وقوداً للمعركة الطويلة، وتبقى الحركة الإسلامية -بعد أن أشعلت الفتيل وكونت الصاعق وفجرت طاقات الأمة - تبقى هي الموجهة والرائدة والراشدة والقائدة؛ لأن الخطر كل الخطر أن تسمح الحركة الإسلامية لغيرها -بعد أن تحقق النصر- أن يتسلم مقاليد الحكم؛ لأن غيرهم لن يكونوا أمناء على أرواح الناس وأموالهم وأعراضهم مثل أبناء الحركة التي قادة المعركة الطويلة.

وهذا الذي حصل ويحصل للحركة الإسلامية في أفغانستان، فأبناء الحركة الإسلامية بدأوا الجهاد بأعداد قليلة -بالقياس إلى الشعب-، والشعب الأفغاني هم الذين كانوا وقوداً لهذه المعركة الطويلة المشرفة، رغم سقوط نسبة كبيرة من أبناء الحركة الإسلامية شهداء، لكنهم يبقون قلة بالقياس إلى الشعب. والآن بعد هذا النصر الذي حققته الحركة الإسلامية لا يجوز أن يسلموا مقاليد الحكم وقيادة الناس إلى غير أبناء الحركة الإسلامية.

ضلال الخوارج وجهلهم في العلم والدين:

هؤلاء الخوارج - في التاريخ الإسلامي - يمثلون مشكلة العمل بلا علم، وأنها تجر مصائب على المسلمين، في كل زمان ومكان. فالإخلاص والعمل لا يكفي لهداية الإنسان، بل لا بد أن يكون مع الإخلاص والعمل صحة هذا العمل، والمتابعة لهدي النبي ﷺ وأصحابه والسلف الصالح.

فالخوارج -مثلاً - لا يشك أحد بأنهم مخلصون، ومجتهدون في العبادة، ومع ذلك لا يشك عالم بأنهم ضالون منحرفون عن هدي السلف الصالح، فالإخلاص وحده لا يكفي،

والعمل دون متابعة السلف الصالح لا يكفي أيضاً، ولا بد من العلم والاستقامة مع العمل والإخلاص.

فقد كان الخوارج أشجع العرب وكانوا أعبد العرب، كما قال أبو حمزة الشاري في خطبته لأهل مكة: (يا أهل مكة تعيرونني بأصحابي، تزعمون أنهم شباب، وهل كان أصحاب رسول الله إلا شباباً، شباب والله.. مكتهلون في شبابهم، غضيضة عن الشر أعينهم، كليلة عن الباطل أرجلهم، أنضاء عبادة (يعني أجسادهم طويت ودوت لكثرة العبادة)، أطلاح سهر (يعني لكثرة سهرهم في الليل كانوا كعود الطلح)، وقد نظر الله إليهم في جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها، وكلما مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأنما زفير جهنم بين أذنيه، موصول كلالهم -تعبهم- بكلالهم -كلال الليل بكلال النهار) فهذه الخطبة تصف أصحابه من الخوارج وصفاً دقيقاً.

ومن هنا قد يطعن الإنسان هذا الدين بإخلاصه على جهل، يقول علي ﷺ – وقد اكتوى بنار الخوارج- (قصم ظهري رجلان، عابد جاهل وعالم فاجر)، وهؤلاء يقصمون الإسلام، كالدب الذي قتل صاحبه، الذي نام تحت شجرة، فجاءت ذبابة تحط على وجهه، فأراد صاحب هذا النائم أن يطرد الذبابة عن وجهه، فجاء بصخرة وألقاها على وجهه فقتلها وقتل صاحبه معها...!!

الخوارج الذين تقربوا إلى الله سبحانه بقتل أول فتى في الإسلام (علي ﷺ)، هذا الشقي – عبد الرحمن بن ملجم-، كما سماه الرسول ﷺ حين قال لعلي: (أَشْقَى النَّاسِ

رَجُلَانِ : أُحَيْمِرُ ثَمُودَ الَّذِي عَقَرَ النَّاقَةَ ، وَالَّذِي يَضْرِبُكَ يَا عَلِيُّ عَلَى هَذِهِ - يَعْنِي قَرْنَهُ - حَتَّى يَبُلَّ مِنْهُ هَذِهِ)[1]..!! وقد مدحه أحد الأشقياء من الخوارج، فقال:

يَا ضَرْبَةً مِنْ تَقِيَ مَا أَرَادَ بِهَا إلاَّ لِيَبْلُغَ مِنْ ذِي العَرْشِ رِضْوَانا

هكذا أوصلهم جهلهم بالدين وقلة عقولهم أن يعتبروا قتل خيرة المسلمين عبادة وتقرباً إلى الله سبحانه، بينما يعتبرون قتل أهل الكتاب حراماً..!!

يقول واصل بن عطاء: كنت في جماعة، فلقينا مجموعة من الخوارج، فعندما رأيناهم من البيت قلت لأصحابي: لا تجيبوهم أنا أجيبهم، فعندما اقتربنا منهم قالوا: ممن القوم؟ قلت: جماعة من أهل الكتاب، فقالوا: امضوا في سبيلكم وتركونا، فقال واصل لهم: إن القرآن يقول: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ﴾ [2]، فنحن جئنا نسمع كلام الله، قالوا: نعم، فأسمعوهم القرآن وأوصلوهم إلى ديار المسلمين...!! تفكير عجيب... وضلال مبين...!!

جاؤوا إلى الإمام أبي حنيفة في المسجد شاهري سيوفهم، فقالوا له: امرأة على الباب ولدت من الزنا وماتت أثناء الولادة، أهي كافرة أم مسلمة؟ -كانوا يعتبرون فاعل الكبيرة كافراً - قال لهم: ارفعوا سيوفكم عني حتى أجيبكم، فرفعوا سيوفهم، قال لهم: أهي نصرانية؟ قالوا: لا.. قال: أهي مجوسية؟ قالوا: لا.. قال: أهي يهودية؟ قالوا: لا..

1) (مسند الإمام أحمد، برقم 18321، 263/4)
2) (سورة التوبة: ٦)

قال: ممن إذن؟ قالوا: مسلمة، قال: أفتيتم أنفسكم، وهكذا أفلت أبو حنيفة بذكائه من أيديهم.

وكان سيدنا علي ﷺ يقول لهم: (لا نقاتلكم حتى تبدؤونا، ولا نمنعكم أن تحضروا مساجدنا) فلما بدأوا بالقتال قاتلهم في معركة النهروان.

وسئل علي ﷺ عن الخوارج، هل هم كفار؟ قال: هم من الكفر فروا، قالوا: هل هم منافقون؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، وهؤلاء يقومون الليل ويصومون النهار، قالوا: فمن هم إذن؟ قال: هم إخواننا بغوا علينا.

وهكذا رأيناهم في (مصر) باسم (جماعة التكفير والهجرة)، لقد أتعبونا كثيراً، وأذكر أن أحد الشباب منهم كان يحبني كثيراً، وكنت أغبطه على تمسكه في الدين وعلى التزامه وإخلاصه، فانضم إلى هذه الجماعة بعد أن اتصل بزعيمهم (شكري مصطفى) ﷺ، فأصبح يتحرج من الصلاة خلفي، فقلت له يوماً: أنا أحس أنك لا تصلي ورائي؟ فقال: بصراحة نعم، قلت: لماذا؟ قا ل: لأنني أعتبرك كافراً..!! قلت: لماذا؟ قال: لأنك لا تكفر (الهضيبي)..!! قلت: لماذا تكفر الهضيبي؟ قال: لأن الهضيبي سئل عن عبد الناصر -وهو في السجن - فقال : لا أكفره..!! والحقيقة أن الهضيبي أجابهم بطريقة أخرى عندما سئل عن عبد الناصر، فقال لهم: ماذا نستفيد إذا كفرناه؟!! وهؤلاء الضالون يستدلون على ضلالهم بـ (من لم يكفر الكافر فهو كافر)...!! فكل واحد لا يكفر الهضيبي فهو عندهم كافر...!!

وأعجب من هذا – عندما ناقشت هذا الشاب – قلت له: تارك الصلاة كافر أم مسلم؟ قال: كافر، قلت له: الإمام أحمد كان يقول عنه كافر والإمام الشافعي كان

يقول عنه ليس بكافر، فما رأيك هل نكفر الشافعي ؟! قال لي بكل جرأة: والله لو كنت حاضراً وناقشت الشافعي ولم يقتنع الشافعي بهذا الحكم لكفرت الشافعي...!! ومع ذلك كان هذا الشاب دائماً تراه صائماً مصلياً قائماً، يتتبع السنن ويلتزم بها، ومع ذلك خرج بهذه النتيجة الغريبة.

ولذلك فالإخلاص والحماس وحده لا يكفي، فلا بد من اتباع العلماء وسؤالهم، ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[1]، فلا بد من الاستقامة المبنية على العلم بهذا الدين، والتقيد بالكتاب والسنة، واتباع منهج الصحابة والسلف الصالح، وتجنب أنصاف المتعلمين، فمعظم مصائبنا من هؤلاء.

ولا بد من التريث في تكفير الأعيان، فهذه قضية خطيرة؛ لأن التكفير يبيح الدم، ويفسخ العقد والنكاح، ويمنع التوارث، ويمنع الدفن في مقابر المسلمين، ويمنع النصرة، ويمنع أكل الذبيحة، فالله سبحانه قال على لسان موسى عندما قالوا له: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴾[2]، وما قال لهم: خرجتم من الدين، وإنكم قوم كافرون..!! وفي قصة غزوة حنين دليل آخر على فساد منهج أهل التكفير هؤلاء، عندما كانوا في طريقهم إلى حنين وجدوا قوماً ينيطون أسلحتهم على شجرة تبركاً بها، فقلنا: (يَا رَسُولَ اللَّهِ ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اللَّهُ أَكْبَرُ ، إِنَّهَا السَّنَنُ ، هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى : اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)[3]..!! ولم يقل لهم رسول الله: إنكم كفرتم وخرجتم من الإسلام، ولا بد أن تدخلوا في الإسلام من جديد!.

1) (سورة النحل: ٤٣)

2) (سورة الأعراف: ١٣٨)

3) (صحيح ابن حبان، برقم 94/6702.15)

الأساس الرابع عشر: الزهد في الدنيا ،والتضحية في سبيل الدعوة[1]

إن أعظم نعمة من الله على الإنسان (نعمة الإيمان به سبحانه)، وأن يحبب إليه العبادة والقرب منه تعالى، وكان الصالحون يدعون الله ﷻ ويقولون: اللهم اجعل حبك وحب رسولك وحب العمل بدينك أحب الأعمال إلى قلوبنا، وفي الحديث: (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ)[2]، فهي نعمة... نعمة عظيمة يَمُنّ الله بها على الإنسان أن يُحَبب إليه الإيمان ويُكَره إليه الكفر.

ومن هنا كانت عزلة الصالحين عن الخلق والأنس بالله سبحانه أعظم سبب لراحة نفوسهم الطيبة الصافية، يجدون الراحة والطمأنينة حين يخلون بربهم، فتأنس قلوبهم وتستريح، بينما أهل الدنيا ومن في قلوبهم غبش ودخل تستوحش نفوسهم في الخلوة فيهربون إلى الخلطة بالناس حتى يروحوا عن أنفسهم وقلوبهم، ولذلك كان قيام الليل عند السلف الصالح جزءاً من حياتهم، كأنه عضو من أعضائهم، فإذا فات أحدهم ليلة واحدة تسلط عليه الندم، وروي عن تميم الداري رضي الله عنه أن قيام الليل فاته ليلة

---

1) **المراجع:**
1- في التربية الجهادية والبناءج1، ج2.
2- في ظلال سورة التوبة.
3- عشاق الحور.
4- في الجهاد فقه واجتهاد.
5- في خضم المعركة.
6- الطود الشامخ (الشيخ تميم العدناني).

2) (البخاري، برقم1،12/16)

واحدة، فآلى على نفسه أن لا ينام الليل سنة كاملة، فكان قيام الليل عضواً من أعضاء أجسادهم ﷺ، وعادة ومنهجاً في حياتهم (عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ)[1]، تماماً كعادتنا حين نأكل في اليوم مرتين أو ثلاثة، لا نتخلى عنه، كذلك كان الصالحون لا يتخلون عن قيام الليل..!! وهذا كله مقصود في منهج تربية نفوسهم، من أجل الزهد بالحياة الدنيا ونعيمها وشهواتها، حتى تتعلق قلوبهم بالله واليوم الآخر، وحتى لا تغرق في مستنقع الشهوات والترف في نعيمها.

إن تربية النفس البشرية بحاجة إلى محاربة الترف، ومحاربة هيجان الشهوات في النفس، وبحاجة إلى الزهد في الدنيا، حتى تستقيم هذه النفس وتتربى على الفضائل والمثل، ويصلب عودها وتقوى الإرادة فيها. حتى تصبر على الطاعات والنوافل وترتقي بالروح والنفس وتسمو بها عن متاع الدنيا الزائل، ولا يصيبها الترهل بالانغماس في الشهوات، فتضعف عن الطاعات، وحينئذ لا تستطيع مواصلة الطريق، ولا الثبات أمام الابتلاءات والإغراءات، فلا بد من التقشف، ولا بد من الزهد، ولا بد من تقليل النفقة على النفس، حتى تستطيع العيش في أي مستوى تضعها فيه.

فهذا سيدنا عمر ﷺ من فقراء الصحابة، وهذا سيدنا عثمان ﷺ من أغنياء الصحابة، ولا تكاد تجد فرقاً كبيراً بين بيوتهما وحياتهما، لماذا؟ لأن الزهد كان أصيلاً في نفوس الصحابة، سواء منهم الفقراء والأغنياء كذلك، ولم تكن الدنيا والشهوات تشغلهم وتسيطر على حياتهم.

1) (الترمذي، برقم 3549، 444/5)

ومن هنا كان الزهد عند رسول الله ﷺ مقصوداً، باعتباره القدوة الأولى، حتى يحتمل أعباء الدعوة الثقيل. تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا (مَا شَبِعَ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ خُبْزِ شَعِيرٍ يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ حَتَّى قُبِضَ)[1]، ووُضعت شاة مصلية -مشوية- أمام أنس رضي الله عنه فبكى، ثم قال: لقد فارق رسول الله ﷺ الدنيا وما رأى شاة مصلية ولا ذاق خبزاً مرققاً.

وعند ضيق ذات اليد، وفي حالة الجوع والحاجة الشديدة ما كان رسول الله ﷺ يطلب شيئاً من أصحابه، وما كان يطلعهم على حاجاته الشخصية، وما طلب من أحدهم شيئاً من مال ولا طعام، بل فضل ﷺ أن يلجأ إلى يهودي ويقترض منه طعاماً، ويضع درعه رهناً عنده، حتى لا يطلب من أصحابه شيئاً، ولو طلب منهم شيئاً كانوا يفدونه بأنفسهم، لكن الرسول ﷺ المعلم الأول قدوة في عزة النفس، والبعد عن دنيا الناس، وهو ﷺ الذي كان يعلم أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئاً، فكان أحدهم بعدها يسقط من يده السوط وهو على جواده، فينزل - والناس حوله- فيتناوله، ولا يطلب منهم، وعندما فعلها أبو بكر مرة أمام أصحابه عاتبوه، فقال لهم: (عاهدنا رسول الله ﷺ أن لا نسأل الناس شيئاً)..!! وهذه عزة النفس التي تربي الرجال الذي لا يطأطؤون رؤوسهم لأحد من الناس، إنها عزة النفس التي يستغني بها الداعية أو المسلم عن البشر، (استغن عن الناس ولو بشوص سواك) ...!!

ولو سألنا سؤالاً صريحاً: ما الذي يجعل الداعية أو المسلم يذل للآخرين أو يذل للطغاة؟!! أليس الحرص على الدنيا، والخوف على الرواتب، والخوف على الحياة

1) (مسند أبي يعلى، برقم 4541، 35/8)

وحاجتهم إليهم؟!! فإذا استغنينا عنهم فلا سبيل لهم علينا. فالموظف دائماً أسير الراتب، ودائماً يفكر ويقول في نفسه: إذا فصلت من وظيفتي انقطع الراتب ووقعت في الضيق، ولذلك يبقى ذليلاً مطيعاً لمن يعطيه هذا الراتب، فيرى كل المنكرات حوله ولا يتجرأ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويسكت عن كل الجرائم والمنكرات خوفاً على راتبه، حتى تأمره الدولة أن يرتكب بعض المحرمات فيفعل خوفاً على راتبه، وربما أمرته أن يقتل خيرة المسلمين أو يسجنهم فيفعل، لماذا؟ لأنه ذليل أسير لدنياه وشهواته ومصالحه..!! فإذا تحرر من الدنيا وشهواتها وملذاتها، ولم يعد أسيراً لها ولأهلها، انطلق عزيزاً كريماً جريئاً، لا يخاف في الله لومة لائم ...! وهكذا كان السلف الصالح من قبلنا، متحررين من شهوات أنفسهم، ولذلك كانت قلوبهم قلوب أسود، صابرين على شظف العيش، ولا يسمحون للدنيا وشهواتها وأهلها أن تأسر نفوسهم العالية الكبيرة.

فعمر ﷺ -في عام الرمادة- أقسم أن لا يذوق لحماً ولا سمناً حتى يرى الخبز في شوارع المدينة...!! وهكذا أخذ نفسه بالعزائم. وبدأ يأكل الخبز الجاف، فأصابه الباصور، وأمعاؤه جَفَّت فتقرحت، وطلبوا من حفصة أن تكلِّم عمر وتذكره بنفسه، فكلمته وقالت: إن لنفسك عليك حقاً، فقال: يا حفصة ألم تخبريني أن رسول الله ﷺ كان عنده قطيفة واحدة يطوي نصفها تحته ونصفها فوقه في الشتاء، وفي الصيف يطويها تحته؟! يا حفصة ألم أخبر أن رسول الله ﷺ ما شبع من خبز الشعير يومين متتاليين، يا حفصة: ألم تعلميني أن رسول الله ﷺ كان يضع حجرين على بطنه ...؟! فما زال يتكلم حتى سكتت ثم خرجت. (وهذا سعيد بن عامر ﷺ رغم أنه كان من الأمراء الذين استعملهم عمر إلا أنه كان ظاهره في لباسه من البذاذة ما يدل على أنه من أفقر الفقراء، بسبب زهده رضي الله عنه وأرضاه).

هكذا تتربى النفس البشرية وتحارب الشهوات وهي في متناول يدها؛ لأن النفس لا تشبع من الشهوات، وكل من يحاول إشباع النفس من الشهوات كالعطشان الذي يشرب من ماء البحر، كلما شرب منه ازداد عطشاً.

مَرَّ جَابِرٌ عَلَى عُمَرَ بِلَحْمٍ قَدْ اشْتَرَاهُ بِدِرْهَمٍ ، قَالَ: (فَقَالَ لَهُ عُمَرُ مَا هَذَا ؟ قَالَ : اشْتَرَيْته بِدِرْهَمٍ ، قَالَ : كُلَّمَا اشْتَهَيْت شَيْئًا اشْتَرَيْته ؟ لَا تَكُونُ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾[1])[2].

فكان الزهد ومحاربة الشهوات في النفس من منهج الصحابة أمراً مقصوداً؛ لأن النفس لا تعلوا ولا ترتفع إلا إذا استعلت على شهواتها وعلى أهوائها، والنفس التي تقع أسيرة الشهوات لا يمكن أن تنازل الأعداء في ساحة اللقاء.

فإذا أراد الإنسان أن يبقى سائراً على الطريق القويم إلى الله ﷻ فليمسك زمام نفسه، وليضبط شهواته وأهواءه. ومع الأسف فإن هذا العلم (علم السلوك) –علم الأخلاق، علم ترويض النفس علم التربية- لا يدرس في الجامعات، علم مدارج السالكين. هذا العلم فُقِد لأنه لا يوجد مربين، ولا يدرس في كليات الشريعة.

فنحن نرى الشباب يحفظ الكثير من الأحاديث الكثيرة، ودرس العديد من الكتب المهمة، مثل رياض الصالحين، وروضة الناظر، ونيل الأوطار، وسبل السلام، وفتح الباري، وغيرها، لكننا لا نجده يصوم النوافل، ولا يقوم الليل، نفسه ميتة، يتتبع الرخص حيثما وجدها؛ لأن نفسه مريضة، والشهوات استولت على قلبه.

---

1) (سورة الأحقاف: ٢٠).

2) (مصنف ابن أبي شيبة، برقم 24524، 140/5).

وكلما ضبط المسلم أهواءه وشهواته، وانكب على العبادة والصلة بالله كلما نمت فيه عومل الخير والإيثار والأخوة الصادقة ومحبة الخير للمسلمين، وتلاشى الشح والأنانية من قلبه.

وهنا نعيد ذكر – قصة الشيخ السنانيري لأهميتها- قال: عملنا تكافلاً اجتماعياً في السجن، فأي واحد يأتيه شيء يوضع عندي وأقسمه على الجميع بالتساوي، فكان الأخ تأتيه حبة الشوكلاته – وفي السجن كان لها قيمتها- فتطوف على سبعة من الإخوة ثم ترجع إلى الأول..!! بينما الشيوعيون الذين هم في السجن معنا، وكانوا قادة للشيوعيين في مصر ومن شخصيات كبيرة في المجتمع المصري –كانوا إذا جاء أحدهم دجاجة من زوجته أو أقربائه، يضعها في داخل ثوبه ويخبئها، حتى لا يشاركه فيها أحد من إخوانه الشيوعيين..!!

ويقول ﷺ: وقعت مشكلة بين الشيوعيين المدخنين وغير المدخنين، يأتيهم الدخان، وبنفس الوقت يريدون أن يطبقوا الاشتراكية بينهم، فكيف يقسمونه بينهم؟!!

فرفعوا الأمر إليّ حتى أحكم في القضية، فقلت لهم: مقابل كل سيجارة كأس شاي، فالذي لا يدخن يعطى كأس شاي إضافي مقابل كل سيجارة، فرفض المدخنون، فقلت لهم وما الحل عندكم، وكيف تحكمون؟ قالوا: الذي لا يدخن عليه أن يدخن...!! هذه نفسية قادة شيوعيين، لو نجحوا في انقلابهم لحكموا مصر بكاملها.. هذه الشُّلَل التي تحكم العالم الإسلامي.

عندما تكون النفوس بهذه التفاهة، وبهذا المستوى النفسي الهابط، بحيث لا يسمح لأخيه في الكفر أن يشرب كأس شاي زيادة عليه، هؤلاء غداً لو وصلوا إلى الحكم وأمسكوا بناصية البلاد والعباد، وكانت الأموال والأعراض بأيديهم، ماذا سيفعلون...؟!!

وهذه الحادثة التي رواها الشيخ (السنانيري) فكما هي مثل أعلى في التضحية والزهد والنفوس الراقية السامية – التي تخلصت من أوهاق الأرض وروابط الطين، كذلك هي مثل أعلى في الأخوة والإيثار والتجرد من الذات.

بزهدنا نفتح العالم ولا نذل لأحد:

أذكر في هذا المجال تجربتي أيام الجهاد في فلسطين، حينما كنا في معسكرات التدريب والرباط على الحدود -بين فلسطين والأردن-، سنة 1969م زارنا الكاتب (جلال كشك)، ومكث معنا في المعسكر ثلاثة أيام، فعجب هذا الكاتب من حالة التقشف والشظف الذي نعيشه داخل المعسكر. والحقيقة أنه كان مثلاً في الزهد والتقشف والتدريب على الصبر على الحياة وشهواتها، وأذكر أنني -في أربعة أشهر- ما شبعت من الطعام إلا مرة واحدة، فقد كانوا يعطوننا نصف رغيف من النوع (اللبناني الرقيق) في الصباح ومعه عشر حبات من الزيتون المخلل، وليس معه شيء آخر، وكان معنا الأخ الشهيد (محمد صالح عمر) السوداني، والذي كان وزيراً في السودان، ثم ركل الدنيا بقدمه وجاء إلى فلسطين للجهاد معنا، ورزقه الله الشهادة فيها...!! وذات مرة طلب هذا الوزير مع الخبز كأساً من الشاي فرفض القائد أن يعطيه، وكان لا يحب الزيتون الأخضر، فكان يأكل الخبز جافاً ...!! فكان الخبز يأتينا، ثم يوضع في الشمس حتى يجف ولا يفسد، ثم كل يوم يوزع علينا منه، فندقه بطرف أسلحتنا حتى تستطيع أسناننا طحنه...!!

وبينما كان الكاتب (جلال كشك) بيننا في المعسكر، بعث لنا أحد الإخوة صندوقاً من التفاح، فرأيناه من العجائب الغرائب، أن نرى التفاح في هذا المكان، ثم وزعوه

علينا حبة واحدة لكل فرد، وعندما رأى (جلال كشك) هذا الحال قال كلمته (لو أن العالم الإسلامي عاش هذه الحياة لفتحنا العالم بأسره) ...!!

والآن أمامنا مثل حي، وهم الشعب الأفغاني، الذي يعيش المجاهد منهم غالب أيامه على الخبز والشاي، فهذا المجاهد بهذه الحياة البسيطة، كم ينفق في الشهر، وكيف يذل لأحد في الأرض كلها. حقاً إن الزهد في الحياة يصنع العزة والرجولة والشجاعة.

ولذلك من الذي يمنع الإنسان من الجهاد؟ لأنه لا يستطيع أن ينفك من قيود الدنيا وشهواتها التي تكبله، من زوجة ووظيفة وأموال وتجارة ومصالح، إنه غارق في الترف، والترف عدو الجهاد، ولا يمكن أن يجاهد إلا إذا تحرر من هذه القيود التي تكبل جسده ونفسه وروحه.

وسيبقى الشيخ (تميم العدناني) مثلاً أعلى في هذا المجال، حين ترك وظيفته، وكان يتلقى أعلى الرواتب، وأفضل الوظائف، وترك الدنيا كلها وجاء إلى أرض الجهاد.

ومن هنا لا زلنا نؤكد ونكرر: لا بد من الزهد ولا بد من تربية النفس على الصبر عن شهوات الدنيا وملذاتها، سواء في مجال العبادة بشكل عام أو مجال الجهاد بشكل خاص. فالله سبحانه جمع الدنيا كلها في كفة والجهاد في كفة أخرى، ثم قال للمسلم: اختار إما هذا الجهاد وإما الدنيا والفسق معها ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ

ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾[1]، فعليك أن تختار، وليس أمام المسلم إلا أن يختار الجهاد وحب الله ورسوله، ولذلك كان الجهاد علامة حب الله ورسوله؛ لأن المجاهد ترك الدنيا كلها واختار الله ورسوله والجهاد في سبيله، وسلك السبل الموصلة إلى ذلك، والسبل الموصلة إلى ذلك هي: التقلل من الدنيا، التقلل من متاعها وشواتها من طعام وشراب ولباس، وكماليات من أثاث وفراش ورياش.

هذه هي الجواذب التي تجذب الإنسان إلى الأرض وتشده إليها، حتى لا يرتقي إلى العلو إلى طريق السلام ودار السلام. والنفس الأمارة هي أول العقبات أمام الإنسان في طريقه إلى الصعود والسمو، يقول ابن القيم ﷺ: (اعلم أن النفس جبل عظيم يعترض السائرين إلى الله سبحانه، ولا يمكن أن تسير في هذا الطريق إلا أن تتجاوز هذا الجبل العظيم، وهذا المرتقى الصعب، وهذا الجبل العظيم فيه أودية وشعاب ووهاد، وعلى قمته يقف الشيطان، يحذر من يحاول أن يصعد هذا المرتقى، والنفس هذه لا بد أن تعلوها حتى تصل إلى طريق الله الآمن، طريق السلام إلى الله، إلى دار السلام التي ينورها وجه السلام سبحانه وتعالى). فكلما حاول الإنسان أن يصعد صاح به الشيطان وجذبه الهوى وانتزعته الشهوة، -نوازع الخلود إلى الأرض وأثقالها وأكبالها وقيودها – كلها تريد أن تخلد به إلى الأرض، حتى لو كان من أكابر العلماء لا بد له أن يجتذب نفسه، وأن ينتزع ذاته من هذه الجواذب والقيود والأغلال، حتى يصبح خفيفاً، ليرتقي بهذه النفس ويصل إلى هذا المرتقى، فإذا وصل أدرك الطريق الآمن، طريق منار

1) (سورة التوبة: ٢٤)

مستقيم، آمن سليم، بعد أن يتجاوز المرحلة العظمى والعقبة الكبرى، عقبة النفس الأمارة بالسوء.

وهناك عقبات كثيرة تساعد النفس لكي تشد صاحبها إلى الأرض، منها الجهل، والجهل بؤرة نتنة، تشد كل ذي هوى إلى عفنها فيغرق في وحلها، ويغوص في نتنها، فيعيق السير إلى الله ﷻ، وتعيق الأقدام أن تنشط من عقالها، وهذه الروح أن تخف من أصفادها.

وكذلك عقبة الشهوات يجعل النفس تتمرد على الحق والأمر الرباني، لأن الشهوة نزوع النفس إلى ما تريد، فيصبح الإنسان إلهه هواه ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[1]، والحمد لله رب العالمين، لقد عشت في حياتي أكره الترف، ولا أحب النفقة على نفسي، وأكره التوسع في الحياة من طعام وشراب ولباس، وما مرّ عليّ فترة في حياتي كانت هذه الأمور تشغلني.

هذه الدنيا مليئة بالشهوات والجواذب الأرضية، التي تجذب النفوس البشرية، لا بد من الحذر منها، ومن خطبها قتلته في ليلة زفافها. (إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ)[2].

1) (سورة الجاثية: ٢٣)

2) (مسلم، برقم 2742، 2098/4).

التضحية في سبيل الدعوة والمبادئ، لنيل رضى الله ﷻ:

إنما تحيا الأمم بعقائدها وأفكارها، وتموت بشهواتها ولذاتها، وبقدر ما ينتشر في الأمة من مبادئ خيرة وعقائد صحيحة، بقدر ما تضرب بجذورها في أعماق الأرض، وترسل مجموعة سيقانها وأوراقها يانعة، تستظل البشرية من لفح الحياة وسعيرها المادي، ومن لظى الحقد والحسد والتنافس على المتاع الحقير والعرض القريب. والأمة المسلمة إنما عاشت على مر التاريخ البشري بالعقيدة الربانية، وبالدماء التي أريقت من أجل نشر هذه العقيدة وغرسها في واقع الحياة.

وحياة الأمة إنما ترتبط بمداد العلماء ودماء الشهداء، وما أجمل أن نخط تاريخ الأمة بمداد العالم ودمه، فتصبح خارطة التاريخ الإسلامي ملونة بخطين، أحدهما: أسود، وهو ما خطه العالم بمداد قلمه. والثاني: أحمر وهو ما خطه الشهيد بنجيعه ودمه، وأجمل من هذا: أن يكون الدم واحداً والريشة واحدة، فتكون يد العالم التي تبذل تخط المداد وتحرك القلم، هي نفس اليد التي تنزف الدم وتحرك الأمم، وبقدر ما يزداد عدد العلماء الشهداء، بقدر ما تنقذ الأجيال من رقادها وتنقذ من ضياعها، وتستفيق من سباتها.

فالتاريخ لا يكتب سطوره إلا بالدم، والمجد لا يبني صرحه إلا بالجماجم، والعزة والرفعة لا يمكن أن تقوم إلا على تلال من الأشلاء والأجساد، والممالك والأمجاد والدول والمجتمعات، لا يمكن أن تقام إلا بالنماذج.

إن الذين يظنون أنهم يستطيعون أن يغيروا واقعاً، أو يبدلوا مجتمعاً دون دماء وتضحيات وأشلاء، ودون أرواح أبرياء، هؤلاء لا يدركون طبيعة هذا الدين ولا يعلمون نهج سيد المرسلين ﷺ. فالذين يبنون الأمم قليلون، والأمة أحياناً تكون بواحد، يقف

موقفاً ينقذ الله به هذا الدين، كما وقف أبو بكر يوم الردة، ووقف الإمام أحمد بن حنبل يوم أن ارتجت الأرض كلها ببدعة خلق القرآن، فنجى الله الأمة به، ومن بعدهم (العز بن عبد السلام) في مواقفه المشهورة.

قليلون الذين يحملون المبادئ، وقليل من هذا القليل الذين ينفرون من الدنيا من أجل تبليغ هذه المبادئ، وقليل من هذه الصفوة الذين يقدمون أرواحهم ودماءهم من أجل نصرة المبادئ والقيم، فهم قليل من قليل من قليل، ولا يمكن أن يصل إلى المجد إلا من عبر هذا الطريق، ولا يمكن أن يقام لهذا الدين بنيان، ولا ترفع له راية، ولا يشرع له سفينة إلا عبر هذا الطريق، هذا الطريق وحده...!! فبناة الأمم وصانعوا الأمجاد قليلون، ولكن الذي يريد أن يصنع مجداً يجب أن يتسلق قمة المجد على بحور من الدماء والعرق، من دماء الذين حوله، من أشلاء الذين رباهم حتى يصل إلى قمة المجد.

فمثلا ...هذه الفئة القليلة من العرب التي قد لا يصل تعدادها بضع مئات، قد غيرت وجه المعركة، من معركة إسلامية لقوم واحد (إقليمية) إلى حركة جهادية إسلامية، تشترك فيها الأجناس جميعاً، وتلتقي فيها جميع الألوان واللغات والعادات، ومشاركة المسلمين على اختلاف أجناسهم في المعركة، قد أيقظ النائمين ونبه الغافلين وزلزل الظالمين. وأعداء الإسلام يراقبون الساحة ويحصون الأنفاس، وبدأ الفزع في قلوبهم من اشتراك غير الجنس الأفغاني في المعركة؛ لأنهم يدركون جيداً مدى خطورة انطلاق شخص من قطر إسلامي، لتدفن جثته في ثرى أفغانستان، لتعلن أن هذا الدين يحتاج إلى ملايين من التضحيات لتغيير واقعهم. وقد يظن بعض المخدوعين الموتورين أن هذه التضحيات التي سقطت على هذا الطريق قد تذهب هدراً وتضيع هباءً.!!

بينما هؤلاء لا يدركون أن التاريخ لا يسجل بمداده إلا بدماء أمثال هؤلاء الشهداء وبقصص هؤلاء، وبمثل هؤلاء تقام الأمم وتحيا المبادئ وتنتصر العقائد. وقد يبدوا للعين القصيرة وللأفق الضيق وللإنسان المحصور في حدود الزمان والمكان، أنها قصص حصلت في أفغانستان وانتهت، وفتح الموت فاه ليبتلع، وابتلع هؤلاء الشهداء، ثم مضى بعجلته التي لا تبقي كبيراً ولا صغيراً، ولكن العين المبصرة والقلب المنير يدرك أن هذه التضحيات هي غذاء الأجيال القادمة لقرون طويلة، هذه القصص وهذه التضحيات وهذه النماذج، ستبقى أعلاماً شامخة على طول جادة هذا الدين، لمن أراد أن يسلكها من السالكين، أو يتأسى بأولئك الصفوة الصالحين ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾[1].

إن هذه النماذج من الشهداء قد انطلقت من قيد وأغلال المادة، حيث الترف والنعيم، وجاءت إلى أرض الجهاد، وعاشت في جبال أفغانستان، حتى أكرمها الله ﷻ بالشهادة.

نماذج كثيرة، يحق للتاريخ أن يسجلهم، ونذكر منهم على سبيل المثال، (الشيخ تميم العدناني، ويحيى سنيور السعودي، وعبد الوهاب الغامدي السعودي، وعبد الصمد-مفتاح-، وحمدي البنا (عبد الرحمن البنا)، وأبو عقبة التونسي، وأبو عاصم (محمد عثمان)،وأبو عبد الحق، وسعود البحري، وأبو دجانة المصري، وأحمد الزهراني، وأبو خالد الجزائري، وعبد الله المصري، وياسر أبو النور، وذبيح الله (أبو حامد)، وأبو حفص (هشام منصور)، وسبع الليل اليمني، وأبو جعفر الشامي، وأبو دجانة اليماني،

1) (سورة الأنعام: ٩٠).

وأبو حذيفة الأردني(ياسين حمدان)،وأبو جندل الفلسطيني (مروان شفيق)، وأبو عبيدة السعودي (عبدالله القحطاني)، وأبو جبل المصري (ابراهيم عطا)، وضرار الشيشاني، وأبو عاصم الصنعاني، وشفيق المدني)[1]، وغيرهم الكثير الكثير ممن كتبنا عنهم وعن سيرتهم العطرة .

ولقد سار هؤلاء وغيرهم من الدعاة والمجاهدين - ممن بذلوا أرواحهم وأعمارهم في سبيل الله في الأرض كلها -، على طريق السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان، وضربوا لنا أروع الأمثلة في التضحية والفداء، في طريق هذه الدعوة، ومن أجل نشر الإسلام. وعندما كنت أطالع السيرة والتاريخ، تاريخ الصحابة، كان يستعجم علي تفسير انبعاث الجيوش من الجزيرة العربية أيام أبي بكر ﷺ دون رواتب ودون أي منصب من مناصب الدنيا...!! كيف كانوا يتركون أبناءهم وعائلاتهم وأسرهم، دون رواتب وليس للجند ديوان أصلاً، ولم تجر الدواوين ولم تفتح إلا أيام عمر بن الخطاب، كيف كانوا يغيبون الأشهر الطويلة، تاركين عوائلهم دون معيل، إنها تضحية تستحق الدراسة فعلاً. ولكن هذه العقدة انحلت من نفسي بعد أن رأيت الشعب الأفغاني، حين رأيت المجاهد يغيب الفترة الطويلة عن عائلته دون معيل ودون راتب، بينما عائلته تتضور جوعاً، ولا يتقاضى شيئاً من قائده سوى ما يسد به رمقه أثناء وجوده في الجبهة. وكم من المجاهدين لم يروا عائلاتهم وزوجاتهم من منذ سنوات، تركوا زوجاتهم في مقتبل العمر وأولادهم الصغار لله الذي لن يضيعهم...!! إنها ضرب من التضحية ترجع لنا تضحيات السلف الصالح، والجيل الفريد الذي رباه رسول

1) للاستزادة بإمكانك أخي القارئ مطالعة موسوعة الذخائر العظام الجزء(2)، ص(387)، حيث كتب الشيخ عبد الله عزام ترجمة عن جميع الشهداء العرب الذين استشهدوا في أفغانستان.

الله ﷺ. يعيد لنا موقف أبي بكر عندما سأله الرسول ﷺ: ماذا تركت لأبنائك؟ قال: تركت لهم الله ورسوله.

ولا أنسى موقف الشهيد (سعود البحري- سعد الرشود-) الذي جاء إلى أرض الجهاد ستة عشر شهراً متواصلة، وطاف في أرجاء أفغانستان على متن جواده، يطير على متنه، كلما سمع فزعة أو هيعة طار إليها، يبتغي الموت مظانه. لقد قلت له ذات يوم: ما رأيك نحضر لك أسرتك، قال: لا، دعهم يضحون ويجاهدون ويصبرون على فراقنا، ثم قال: لقد نسيت صور بناتي الثلاث...!! وذات ليلة رأيت إحدى بناتي تداعبني في المنام، وشد الحنين إليها قلبي، فانتبهت من نومي مذعوراً، وعلمت أنها رؤيا شيطانية، تريد أن ترجعني من أرض الجهاد.

قلت له: ما رأيك تذهب إلى (جوزجان)؟ قال: أينما توجهني أذهب، وذهب وغاب بين الثلوج ستة أشهر على ضفاف نهر (آمو جيحون).

صدقوا يا إخوة لقد كنت أشعر بقزامة نفسي وصغرها أمام تضحية هذا الشاب العملاق الكبير، ثم مضى بخفية إلى ربه، جاء غريباً وعاش غريباً ومضى غريباً، فطوبى للغرباء.

إن ثمن الدعوات باهظ، ثمن حمل المبادئ ونقلها من عالم الأفكار والنظريات إلى عالم التطبيق والواقع، إن النظريات والمبادئ بحاجة إلى تضحيات باهظة حتى تصبح واقعاً حياً في عالم الأرض. ولن تنتصر دعوة أرضية كانت أم سماوية إلا بالتضحيات، بشرية أم ربانية. الدماء... الأشلاء... الأرواح... الشهداء... كلها وقود للمعركة، معركة المبادئ، وقود لمعركة الأفكار والعقائد. والآية واضحة حين تصرح بأنه لا جنة بدون تضحيات

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[1].

ولقد كان رسول الله ﷺ مثلاً أعلى في التضحية والفداء لهذا الدين، ففي الحديث: (لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ)[2].

إن طريق الدعوات شاق ومرير وطويل، كله أشواك، وكله تضحيات، وقد يخرج الداعية من الدنيا ولا ينال ثمرة واحدة نتيجة عمله.

فهل تظنون أن المبادئ لعبة أو لهواً أو متاعاً، يبلغها الإنسان أو الداعية بخطبة منمقة مرصعة بالألفاظ الجميلة، أو يكتب كتاباً يطبع ويودع في المكتبات، لم يكن هذا هو طريق الدعوات أبداً، إن الدعوات تحسب دائماً في حسابها أن الجيل الأول الذين يبلغون الدعوة، هؤلاء يعدونهم في عداد الشهداء. فالجيل الأول كله يذهب وقوداً وتضحية للتبليغ، وزاداً لإيصال الكلمات التي لا تحيا إلا بالقلوب والدماء. (إن كلماتنا ستبقى ميتة عرائس من الشموع، لا حراك فيها جامدة، حتى إذا متنا من أجلها

1) (سورة البقرة: ٢١٤).
2) (الترمذي، برقم 2472، 226/4).

انتفضت حية وعاشت بين الأحياء، كل كلمة عاشت كانت قد اقتاتت قلب إنسان حي فعاشت بين الأحياء، والأحياء لا يتبنون الأموات).

إن طريق الدعوات محفوف بالمكاره، مليء بالمخاطر ... سجون ...وقتل ... وتشريد ...ونفي، فمن أراد أن يحمل عقيدة أو يبلغ دعوة، فليضع في حسابه هذه، ومن أرادها نزهة ممتعة، وكلمة طيبة، ومهرجاناً حافلاً، وخطبة ناصعة في كلماتها، فليراجع سجل الرسل والدعوات وأتباعهم.

وها نحن كل يوم نودع كوكبة من الشهداء، من خيرة إخواننا وأحبتنا، منهم أبو عقبة التونسي وعبد الرحمن البنا المصري وعبد الوهاب السعودي وأبو حمزة وأبو عثمان، وغيرهم الكثير ممن عرفت، وكلهم تجمعهم صفة مميزة (سلامة الصدر والطوية وإخلاص يجعله يكبت اللسان عن المسلمين، ويطلق الأركان بالأفعال).

ولقد أدركت – بعد ردح من الزمن، ومن خلال معرفتي بهذا الدين، ومن خلال دراسة سجل الدعوات الربانية، ومن خلال تجربتي في مجال الدعوة والجهاد -: أن الجنة ليست متاعاً زهيداً يستامه المفلسون، وليست عرضاً زائلاً رخيصاً يشتريه الناس بالنسيئة.

إن أصحاب الدعوات والمبادئ الأرضية - ممن لا يرجون جنة ولا يخافون من نار- لم تكن دعواتهم لتنجح إلا بعد أن قدموا التضحيات الباهظة. إن ما تنعم به الشعوب الغربية من الديمقراطية والحرية، لم يكن مصادفة، إنهم لم يصلوا إلى هذه المبادئ التي ينعمون بها إلا بعد تضحيات فادحة، إلا على دماء وجماجم المفكرين، لقد قتل عشرات الآلاف في محاكم التفتيش، وهم يريدون أن يخرجوا الإنسان الغربي من قبضة الكنيسة الجبارة، ويحرروه من قيدها المتين.

لقد قاوم المفكرون في الغرب ثلاثة قرون متتالية، وقدموا الكثير من التضحيات ليخرجوا أممهم من عبودية رجال الدين المخرفين، الذين كانوا يسوقون الناس إلى جحيمهم بسوط الكنيسة القوي.

إن هذا التحرر الغربي من جحيم الكنيسة إلى ما تنعم به الشعوب الغربية من الديمقراطية والحرية الفردية، لم يكن مصادفة، ولا نتاج يوم وليلة، إنما كان نتاج دماء أناس ضحوا في سبيل أفكارهم، وهم لا يطمعون في جنة ولا يخافون من نار، بل لشدة ما عانوا من ظلم الكنيسة والملوك الظلمة، كانوا يحملون شعار (اشنقوا آخر ملك بأمعاء قسيس). فلا يمكن لمبدأ أن ينتصر بدون تضحيات وبدون دماء.

لقد قدمت الدعوة الإسلامية نماذج فذة، وضحت على الطريق الكثير الكثير عبر التاريخ، وكانت دماؤهم شعلة للأجيال من بعدهم، فإذا كان (حسن البنا) قد قتل في أكبر شوارع القاهرة في ميدان (رمسيس)، وقُضِي عليه في داخل غرفة العمليات، ولم يُصلِّ عليه سوى أربع نساء، إلا أن دمه أحيا أجيالاً في الأرض، وإذا كان (عبدالقادر عودة) و (محمد فرغلي) و (يوسف طلعت) و (هنداوي دوير) و (إبراهيم الطيب) و(محمود عبد اللطيف) و (سيد قطب) و (عبد الفتاح إسماعيل) و(محمد يوسف هواش) و (صالح سرية) و (كارم الأناضولي) وغيرهم... هؤلاء دماؤهم إنما هي النار التي تؤجج صدور الجيل الذي يسعى لإقامة دين الله من جديد.

وعلى طريقهم كان (القسام) و (سلامه) وغيرهم، هؤلاء أناروا لنا شعلة لنحملها على طريق الدعوات والمبادئ، كانت دماؤهم منارات للأجيال التي تريد أن تهتدي. ولقد كان صدق ابن تيمية وتضحياته في سجون الظالمين، السبب في خلود كتبه وكلماته، كما كانت دماء سيد قطب سبباً في خلود كتبه وكلماته.

وكلما نظرت إلى آثار وأثر هذين العملاقين أتذكر قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾[1].

ووصلت إلى حقيقة أن التضحيات والابتلاءات من طبيعة الدعوات الربانية وأصحابها ودعاتها، وأن الدعوة لا يمكن أن يمكن لها في أرض الواقع أبداً إلا عبر تضحيات باهظة يقدمها الدعاة وأصحابها الذين يتصدرون المشهد، ويواجهون الجاهلية بطغيانها وخيلها ورجلها وهليمانها وجعجعتها، وأدركت في النهاية بيقين جازم لا يتزعزع بخطورة تولي قيادة الأمم من أناس لم يتمرسوا بهذا الدين من خلال معاناة طويلة، وبذل وجهد ناصب وتضحيات باهظة، وعرفت أكثر مما مضى سر اشتراط الفقهاء- العلم والتقوى – لمن يلي أمور المسلمين أو يتصرف في شؤونهم.

1) (سورة إبراهيم:٢٤– ٢٥).

الأساس الخامس عشر: نشر الخير، وتجنب الشائعات، وبث الأمل في قلوب المسلمين [1]

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾[2]، يرشدنا رب العزة سبحانه وتعالى من خلال الآيات البينات إلى الآداب الإسلامية تجاه الشائعات في المعركة وأثناء احتدامها، فهناك جهة وحيدة تستقى منها المعلومات، وتتلقى منها الأوامر، وهي (أولي الأمر منكم) ممن يحكِّمون شرع الله.

والناس في المجتمع المسلم قسمان: قسم عرف هذا الأدب فأخذ به، فلا يردد كل ما سمع، بل يمحصه ويرجعه إلى أصحابه، وبعد ذلك إن سئل أجاب، وإن لم يسأل فخير له السكوت، ورحم الله امرأ قال فغنم، أو سكت فسلم، ومن صمت نجا.

أما القسم الثاني: فهم الذين لم يتلقوا التربية اللازمة، فتراهم يرددون كل ما سمعوا:

أثَّر البَهتانُ فيه   وَانْطلَى الزّورُ عليْه
يَالَهُ مِنْ بَبّغَاءِ   عقلُه في أذْنيْه

---

1) المراجع:
1- في خضم المعركة.
2- موسوعة الذخائر العظام ج3 / 8، 285. ج288/3، 728، 814، 283.
3- كلمات من خط النار الأول.
4- في التربية الجهادية والبناء ج1، ج2.
5- في ظلال سورة التوبة.

2) (سورة النساء: ٨٣)

وقد يكون الفريقان صادقين، ولكن منهم بصدقه يطعن الدين الطعنة النجلاء، ومنهم بصدقه ينفع المسلمين وينقذهم من البلاء.

فمن هم أولو الأمر الذين عنتهم الآية الكريمة: فحسب قول الحسن وقتادة وابن أبي ليلى، قالوا: هم أهل العلم. وحسب قول (السدي) قال: هم الأمراء المسلمون. وقال (الجصاص): لا بأس أن يكون الجهتين هم المقصودون في الآية.

وتشتد خطورة نشر الشائعات في الجهاد والغزو والرباط، وأثناء المعركة على وجه الخصوص. ففي هذه الحالة ترى أعصاب الناس ونفوسهم وقلوبهم كلها مشدودة لاستعمال القوة، وكلها مصوبة معلقة بالنصر الذي يطمعون، ومن أجله دماءهم يهرقون وأموالهم يدفعون، والأعصاب البشرية لا تحتمل –وهي مشدودة- الضربات المتتالية أو الساخنة أو الثقيلة، ومن هنا يحرص الأعداء أثناء المعركة على نشر الشائعات وأسوأ الأخبار بين أفراد الجيش المقابل ليتفرقوا. وفي السيرة النبوية الشريفة استعمل الأعداء هذا الأسلوب، ففي يوم أحد صاح (ابن قميئة) أن قتلت محمداً، فقعد الصحابة عن القتال، وقالوا: ماذا نفعل بعد مقتل رسول الله ﷺ، حتى إذا مر أنس بن النضر رضي الله عنه في رجال من المهاجرين والأنصار قد ألقوا ما بأيديهم، فقال: ما يجلسكم؟، قالوا: قتل رسول الله ﷺ، وكان الشيطان قد نادى بذلك...، فقال لهم أنس رضي الله عنه: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه[1].

ويروي لنا التاريخ - في معركة (بلاط الشهداء) على نهر (بواتيه)- أنه أشيع مقتل القائد (عبد الرحمن الغافقي) أثناء المعركة فخسر المسلون المعركة، وهم على بعد

1) (بنحوها ورد في الدرة الثمينة في أخبار المدينة، 69/1)

مائة كيلو تقريباً من مدينة (باريس)، وتفرق الجيش الإسلامي، ولحقتهم سيوف الكفار بقيادة (شارل مارتل)، وكان هو السبب في وقوف المد الإسلامي، وعدم تقدمه نحو أوروبا، فبقيت معظم أوروبا تغط في دياجير الظلام.

فانظر -يا مسلم بعين البصيرة-، شائعة واحدة وأرجوفة واحدة -أثناء المعركة - حرمت العالم في أوروبا من دين الله ﷻ، الذي نزل رحمة للعالمين.

ولو تأملنا بعين البصيرة والعقل النافذ في موقعة (بدر) وما نزل بشأنها من آيات قرآنية، لوجدنا العجب، ولرأينا هداية الآيات الربانية في أثر نشر الأخبار أثناء المعارك. حتى أن الآيات توضح بصراحة أن الله سبحانه قلب واقع الأمر -في ذهن رسول الله ﷺ، وفي ذهن الصحابة الكرام وصفوة الأمة- يوم بدر، حتى لا تهتز مشاعرهم ولا ترتجف أوصالهم، وحتى يثير الشجاعة فيهم ويغريهم على الإقدام، حتى لا يفشلوا ويتنازعوا، وليتحقق النصر المبين. قال تعالى: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾[1]، وهذا النص الكريم كاف لكل صاحب بصيرة، ليدرك أهمية نشر الأخبار أثناء المعركة، وأهمية بث الأمل ونشر الخبر الإيجابي بين صفوف المسلمين عموماً.

1) (سورة الأنفال:٤٣- ٤٤)

فقد غير الله سبحانه واقع الأمر – في أعين المسلمين وفي أعين الكافرين – لتحقيق النصر المبين، ولأن المعركة تقتضي أن يقلل جموع الأعداء في أعين المسلمين، حتى ترتفع الهمم وتشحذ العزائم، وتنقض أسود الله، وتمضي مطمئنة لقدر الله متوكلة عليه، ولأن الأسباب المادية لها أثرها في نفوس المؤمنين أثناء احتدام المعركة.

يقول لي بعض الإخوة: لماذا لا تنقل الصورة كاملة من كل النواحي وكما هي في أفغانستان، ولماذا لا نخبر المسلمين بجميع السلبيات كما نخبرهم بالإيجابيات؟! قلت لهم: ينبغي أن نعيد دراسة السيرة النبوية مرة ثانية، وعلينا أن نراجع دين الله وكتاب الله سبحانه، لنرى كيف ينبغي أن ننقل الأخبار، وكيف تنقل سير الأبطال من الصحابة والتابعين في كتب المناقب والسير والمغازي.

فتروي لنا السيرة النبوية العطرة أنه عندما نكثت بنو قريظة العهد مع الرسول ﷺ، أصبح المسلمون في خطر داهم، فدعا النبي ﷺ (غطفان) وقال لهم: ما رأيكم ترجعوا وتتركوا جموع الأحزاب ونعطيكم ثلث تمر المدينة، فوافقوا، ثم استشار أصحابه فرفضوا، فتراجع عما كان يريد، لما رأى من أصحابه الصلابة والثبات، ثم دعا رسول الله ﷺ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وأمرهما أن يذهبا إلى بني قريظة –وقد كان بين قوم سعد بن معاذ (الأوس) وبين بني قريظة حلف وصداقة في الجاهلية، فعندما أراد الصحابيان الذهاب أوصاهم النبي ﷺ وقال لهما: إذا كان الخبر صحيحاً وأن قريظة نقضت عهدها فلا تشيعوا الخبر بين المسلمين وأشيرا لي إشارة، وإن كان الخبر كاذباً وأنهم لا زالوا على عهدهم فأشيعوا الخبر بين المسلمين، وعندما ذهب الصحابيان إلى يهود بني قريظة ووجدوا أن القوم قد أصروا على النقض والنكث، رجعا إلى النبي ﷺ

وقالا: (عضل والقارة) أي نقضوا وغدروا بعهدهم كما نقضت وغدرت قبائل عضل والقارة، ففهم الرسول ﷺ الرسالة، لكنه كبر بصوت عال وقال: أبشروا أيها المسلمون، فظن المسلمون أن هناك خبراً ساراً ومفرحاً وبشرى وصلت النبي ﷺ.

ففي هذا الجو الخانق والظلام المدلهم والكرب العظيم، الذي وصفته الآية ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾[1]، في هذا الجو الشديد الصعوبة يجد المرجفون صيدهم الثمين ووسيلتهم لتثبيط عزائم المسلمين.

ويروي لنا التاريخ أنه بعد وفاة أبي بكر رضي الله عنه وتعيين عمر بن الخطاب رضي الله عنه خليفة من بعده، بعث رسالة إلى خالد بن الوليد الذي كان يقاتل الروم في بلاد الشام، وأمر بعزل خالد وتعيين أبي عبيدة مكانه قائداً على الجيش، ووصلت الرسالة والمسلمون منهمكون في معركة فاصلة (معركة اليرموك)، فطوى خالد الرسالة، وأمر حاملها بأن لا يفشي الخبر حتى تنتهي المعركة، حتى لا يفت في عضد الجيش الإسلامي، وبعد أن انتهت المعركة بالنصر على أعداء الإسلام، وولت جموعهم هاربة من سيوف الله، أخرج خالد الرسالة وقرأها على جموع المقاتلين وولي أبو عبيدة قيادة المقاتلين المسلمين.

والسؤال الآن: ماذا سيحصل للمسلمين لو أن خالداً لم يُخْفِ الرسالة والخبر عن المسلمين، وأشيع هذا الخبر بين المقاتلين ؟!!وجميع المسلمين يعرفون من هو (خالد

1) (سورة الأحزاب: ١٠-١١)

ابن الوليد)، البطل المعروف في معاركه، فلم يهزم في جاهلية ولا في الإسلام أثناء قيادته للمعارك.

ولو تتبعنا التاريخ الإسلامي لوجدنا الكثير من الأحداث خسر فيها المسلمون خيراً كثيراً بسبب نشر الأخبار الكاذبة والملفقة، ومن الأمثلة على ذلك في التاريخ –ما ذكرنا سابقاً- أن العالم المجاهد (السيد أحمد عرفان الشهيد)في القارة الهندية في أوائل القرن الثالث عشر الهجري بدعوته وانتصاراته كاد أن يقيم دولة إسلامية قوية، ويوحد البلاد والعباد، لولا المؤامرات الرهيبة التي حيكت ضده من قبل الكفار والمنافقين، ومن قبل الدهماء والبسطاء من المسلمين الذين راحوا يرددون الأكاذيب والشائعات عن هذا البطل وجنوده الصادقين.

وهكذا بدعاية واحدة وأكذوبة واحدة وإرجافة واحدة بين عوام المسلمين وجهلتهم، بددوا آمال المسلمين في القارة الهندية، وقتلوا الدعاة والمجاهدين. ولازال الإنجليز وعملاؤهم ينشرون هذه الدعاية (الوهابية) ويحاربون بها المجاهدين في أفغانستان وقادتهم – خاصة أبناء الحركة الإسلامية-، وكم صنعت من الفتن وكم مزقت من المجاهدين، حيث لا زالت إذاعتهم تبث باستمرار، وتحرض على قادتهم بأنهم هؤلاء وهابيون جاءوا لتغيير دينكم ومذهبكم الحنفي، وهم يعلمون جهل عامة الشعب الأفغاني وتعصبه لمذهبهم الحنفي.

ولقد عالجت آيات سورة الحجرات القضية، وكيفية مواجهة الشائعات، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ

نَدِمِينَ ﴾[1]، فمواجهة الإشاعات بالتحقق من الأخبار، والبناء على اليقين، وعدم الجري وراء الشبهات والدعايات المغرضة، التي تفت في عضد المجاهدين، وتمزق جماعات المسلمين، وتجعل المجتمع المسلم شذر مذر، متباغضاً يبغض بعضهم بعضاً ويقاتل بعضهم بعضاً، وبالتالي يحول المجتمع المسلم إلى مجتمع هزيل ضعيف، لا يستطيع مواجهة أعدائه ومنازلتهم.

وبث الشائعات والأراجيف كان أسلوباً رخيصاً من أساليب المنافقين قديماً، في عهد النبي ﷺ، وسجل القرآن أفعالهم ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ﴾[2]، وقال سبحانه:﴿ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[3].

والخبال هو الفساد والنميمة والفتنة والتفريق بين المسلمين، وبث الأراجيف في داخل صفوف المسلمين، وكذلك بث الشكوك والريب بين المسلمين في الدين والقيادة؛ لأن حرق القيادة للصف المسلم هدف مقصود وصيد ثمين للمرجفين والمنافقين.

وهؤلاء أطلق عليهم القرآن الكريم (مرجفين، معوقين، مثبطين، مخذلين) وهؤلاء باتفاق الأئمة لا يجوز أن نتركهم في الجيش، ويحرم على الأمير أن يصطحب هؤلاء معه إلى الغزو والقتال. والمخذل: هو الذي يقول للمجاهدين – مثلاً- الدنيا حَر، الدنيا برد، تتقطع الأصابع والأرجل من البرد، أو يقول: عدد الكفار كثير. والمرجف يعني: هو الذي

1) (سورة الحجرات: ٦)
2) (سورة النساء: ٨٣)
3) (سورة التوبة: ٤٧).

يقول: هلك المسلمون، هزم المسلمون، أو ينشر عيوب المجاهدين حتى يمنع المسلمين من النفير معهم للقتال. وحدثني أحد الإخوة الثقات أن رجلاً وقف في أحد مساجد الرياض ثم قال للناس: أيها الناس: أحذركم وأنصحكم أن لا تدفعوا تبرعات للمجاهدين الأفغان؛ لأن هؤلاء مشركون بالله ولوطيون...!!

وأذكر أنني بعد أن تكلمت في مسجد عن الجهاد الأفغاني -في مكة المكرمة – قال لي رجل وكنت أعرفه سابقاً- وهو أستاذ جامعي مع الأسف -: إنني سمعت من بعض الناس أن لك عمارات في (بيشاور)..!! قلت له: ماذا أفعل بهذه العمارات؟!! الإنسان يبني عمارات في بلاده حتى يسكنها أو ينتفع بها؟!! وأنا لماذا أبني عمارات في بيشاور..؟!! ثم سكت ولم أجبه؛ لأن كلامه تافه لا يستحق الرد. ثم قلت: دع هؤلاء لله وهو سبحانه يرد عليهم ﴿ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾[1]؛ لأن هذا هو الباطل الذي سيبطله الله، وقد تكفل الله بذلك؛ لأن الأراجيف والإشاعات والفتن، سحابة صيف عن قريب تقشع، سرعان ما تزول ويبين الحق؛ لأن الكلام الطيب والحق والصدق جذوره ضاربة في الأرض، والكلام الخبيث والكذب لا جذور له ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ﴾[2].

1) (سورة الأنفال: ٨)

2) (سورة إبراهيم: ٢٦).

فالحق والصدق تمتد جذوره في الأرض وفي أعماق النفوس ويتفاعل مع هذه النفوس، والباطل ينزلق عن القلوب، فعمره قصير ومداده قليل لا يستمر طويلاً ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾[1].

ولقد بلغت حدة الشائعات والأراجيف من قبل هذه الفئة المفسدة في الأرض، أنهم قالوا عن أحد أكبر القادة المجاهدين، أن عنده (وثن) في مخيمه يعبده من دون الله..!! كذباً وافتراءً عظيماً.

وأقول لبعض المسلمين الذين ينشرون الشائعات وبعض الأخطاء والمعاصي لبعض المجاهدين الأفغان: إن جهاد الشعوب غير جهاد الحركات الإسلامية، فالشعوب فيها العاصي وفيها الطائع، وقد تجد بينهم من يشرب الدخان أو يتعاطى بعض الذنوب، لكن جهاد الحركات الإسلامية جهاد فئة صافية، قد تربت طويلاً على هذا الدين.

يقول ابن تيمية: (من أصول أهل السنة والجماعة الجهاد مع كل أمير براً كان أو فاجراً، أو المعسكر الكثير الفجور، فإذا لم يتيسر الجهاد إلا مع معسكر كثير الفجور فيجب الجهاد)؛ لأننا نقف أمام خيارين، إما الكفر وإما الفجور، ثم قال: (والذين يتورعون عن الجهاد مع الفجار من المسلمين، هؤلاء سلكوا مسلك الحرورية -من الخوارج- ذوي الورع الكاذب، وهذا يدل على جهلهم).

ونشر الشائعات والأراجيف لا تقتصر على مواطن الجهاد، بل هو أسلوب من الأساليب الرخيصة تستعملها أجهزة المخابرات في الدول التي تنصب العداء للدعوة

1) (سورة الرعد:١٧).

الإسلامية ورموزها، فهذا عملاق الفكر الإسلامي (سيد قطب)، عندما رأت أجهزة المخابرات العالمية إقبال الشباب على كتبه وتأثيرها بهؤلاء الشباب، لجأت إلى طريقة نشر الشائعات والأراجيف والأكاذيب ضده وضد كتبه، والتشكيك في عقيدته وكلماته وفكره. وهؤلاء المساكين لا يعلمون أنهم يصدون عن سبيل الله، وأنهم أداة ومعول في هدم الدعوة الإسلامية. حتى بلغ بهؤلاء الجهلة أن يشككوا في عقيدة الإمام النووي...!! ولو اخترنا عشرة من ألمع فقهاء الإسلام في التاريخ سيكون النووي منهم...!! ثم يأتي أحمق جاهل يطعن في عقيدته...!! ﴿ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ﴾[1]، حتى يشوش هؤلاء على الجيل الصاعد الراجع إلى ربه، ويحجبه عن الانتفاع بكتب الإمام النووي أو كتب الأستاذ سيد قطب أو غيرهم من العلماء والمفكرين والدعاة البارزين.

1) (سورة التوبة: ٣٧)

الأساس السادس عشر: حفظ الأعراض[1]

كل دين نزل من السماء – من عند الله سبحانه -، جاء للحفاظ على الضرورات الخمس (الدين، النفس، والعرض، والعقل، والمال)، ولذا يجب المحافظة على هذه الضرورات بأية وسيلة، ومن هنا شرع الإسلام قاعدة دفع الصائل، والصائل: هو من يسطو على غيره قهراً يريد نفسه أو ماله أو عرضه.

فالصائل على العرض، ولو كان مسلماً إذا صال على العرض وجب دفعه باتفاق الفقهاء، ولو أدى إلى قتله، ولذا فقد نص الفقهاء على أنه لا يجوز للمرأة أن تستسلم للأسر -ولو قتلت- إذا خافت على عرضها.

يقول ابن تيمية: (والسنة والإجماع متفقان على أن الصائل المسلم إذا لم يندفع صوله إلا بالقتل قتل)، وفي الحديث الصحيح: (...وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ)[2].

ومن هنا فمن أجل الحفاظ على الأعراض والنسل حرم الله سبحانه الزنا، وجفف موارده، وشرع الزواج، وشرع حد الرجم والجلد، بل حرم كل وسيلة قد تهتك الأعراض، فحرم النظر للأعراض في القرآن والسنة والإجماع. يقول ابن تيمية: (من أحل النظرة فقد كفر بالإجماع).

---

1) المراجع:

1- خط التحول التاريخي.
2- العقيدة وأثرها في بناء الجيل.
3- الدفاع عن أراضي المسلمين أهم فروض الأعيان.
4- في التربية الجهادية والبناء ج1، ج2.
5- بشائر النصر.

2) (الترمذي، برقم 1421، 82/3).

وما كان لدين الله ﷻ –وهو من الله العليم– أن يشدد على قضية المحافظة على الأعراض إلا لخطورتها في حياة البشر واستقامة الناس، وتحقيق سعادتهم، بل إن التساهل في الأعراض وانفلات الناس فيه دون ضوابط ليتسع أثره السلبي في حياة الناس إلى أجسادهم، فيوهنها وينشر فيها الأمراض والأوجاع ويفتك في أبدانهم. ففي الحديث الشريف الذي أخرجه ابن ماجه (...لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمْ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا)[1].

ولقد أدرك أعداء الإسلام أن ضياع الأعراض وعدم الانضباط فيها، يعني ذلك - بكل تأكيد - انهيار جدار الأخلاق بعدها. فعملت الطغمة المجرمة من اليهود وأشباههم على هذا الخط المدمر، ابتداء بعالم الاقتصاد (ماركس)، الذي حصر مطالب الإنسان في (المأكل والمشرب والإشباع الجنسي)، وانتهاء بعالم النفس (فرويد) الذي فتح أبواب الجنس على مصراعيه، دون ضوابط أو حدود، وأعلن أن الحياة كلها جنس، حتى الدين والأخلاق فإنها – في نظره – تنبثق عن الجنس، ولقد وصل به الإسفاف – كما ذكرنا في بداية الكتاب – إلى القول بأن الطفل يحب أمه جنسيا، والطفلة تعشق أباها جنسيا...!! وجاء (سارتر) بكتبه المدمرة، منها (الوجودية فلسفة إنسانية) و (الغثيان) وهو الذي دافع عن اليهود في كتابه (اليهود واللاسامية)، وبقي (سارتر) مع عشيقته الوجودية (سيمون دي بوافوار) ينشران الإباحية والفساد في أرجاء العالم، حتى مات. وفي كتاب سيمون (الجنس الثاني) الذي كتبته سنة 1949م، ترى فيه أن تاريخ المرأة اختلط بتاريخ الميراث، وظل مفهوم (الزنا) مرتبطا بمفهوم الملكية فترة طويلة، أي أن أسلوب الملكية

1) (ابن ماجة، برقم 4019، 1322/2).

هو الذي جعل الزنا عيبا محرماً...!!، وهي ترى أن التربية الدينية هي التي جعلت الفتاة تقر أن الرجل له القوامة عليها والسبق في الكفاءة.

أما الزواج فهو –عند سيمون– مبدأ فاحش؛ لأنه يقصر التمتع على واحد، وأما الجنين في بطن الأم فهي تشمئز منه، ولا بد من الإجهاض، وتقرف من مهنة الأمومة. وكتبت (مذكرات فتاة عاقلة) و (شرخ الشباب) و (قوة الأشياء)، وهي الكتب الثلاثة من مذكراتها.

وفي مصر ظهر مجموعة – ممن يروج لتحرير المرأة من أخلاقها وقيمها -، ويعملون جاهدين لإفساد فطرة المرأة المصرية الطيبة، وعلى رأسهم (نازلي ابنة مصطفى فاضل)، وهو أخو إسماعيل باشا، وكان مصطفى ولياً للعهد، ثم أقصاه إسماعيل فسافر إلى تركيا ثم إلى أوروبا، وهناك تربت نازلي وأتقنت عدة لغات، ثم عادت إلى مصر لتعمل بها من التخريب ما عجزت عنه الدوائر الغربية، ففتحت صالونها، وكان صالونها ملتقى هواة السلطة، ومحط أنظار الذين يحلمون بالعلو في الأرض؛ لأن الصالون أصبح يحظى برعاية (كرومر) – المعتمد البريطاني -. ومنهم (سعد زغلول) الذي تزوج (صفية ابنة مصطفى فهمي) رئيس الوزراء للاحتلال البريطاني لبضعة عشر عاما، ثم أصبحت تسمى (صفية زغلول) وتسمى (بأم المصريين). ومن رواد هذا الصالون (لطفي الخولي) ثم جيء بـ (قاسم أمين) الذي رد مرة على أحد الفرنسيين (داركور) -حين نال هذا الفرنسي من مكانة المرأة في الإسلام -، فقام قاسم أمين فرد عليه ودافع عن مكانة المرأة ومكانتها وحشمتها ولباسها، مما أوغر ذلك صدر (نازلي) التي كانت تدعو إلى العري والتهتك، ولم ترضَ (نازلي) عن قاسم أمين إلا بكتابة كتاب عن المرأة، ويدعوا إلى تحرير المرأة، فأصدر كتاب (تحرير المرأة)، ومعنى تحرير المرأة تحريرها من القيم والمبادئ والحياء

والخلق. وبقيت بريطانيا ترعى هذا الصالون ورواده حتى أوصلوهم إلى سدة الحكم، فأصبح سعد زغلول وزيراً للمعارف ثم رئيساً للوزراء، وأضحى لطفي السيد رئيسا للجامعة المصرية، وفرض الاختلاط بين الجنسين في الجامعة، وهذه هي النتيجة المطلوبة لبريطانيا وربائبها.

ولقد أثبتت الأحداث بأن لصفية –زوجة سعد زغلول – و (هدى شعراوي) ابنة سلطان باشا، والمعروفة بتحللها ودعوتها لتحرير المرأة – كان لهما أثر كبير في إفساد المرأة المصرية الطيبة، فبعد عودة (هدى شعراوي) من رحلتها إلى أوروبا – وعلى سلم الباخرة – نزعت خمارها ووضعته تحت قدميها، وقالت: انتهى عصر الظلام إلى الأبد، ثم شكلت (جمعية السيدات المصريات) ...!

وهذه الأسماء التي أبرزها اليهود لتعمل في تدمير المرأة وفوضى الجنس، وأأكد هنا كلمة قالها (هتلر): (ما من فعل يغاير الأخلاق، وما من جريمة بحق المجتمع إلا ولليهود يد فيها، وإن تسعة أعشار المسرحيات واللوحات الفنية التي تروج للإباحية المطلقة وللماركسية إلا وهو من صنع اليهود).

وهذا أمر واضح أن الصهيونية العالمية وراء هذا الدمار، والتي تعتبر الأخلاق هو الحائل الأكبر أمامها دون تدمير البشرية برمتها. فقد جاء في (بروتوكولات حكماء صهيون) (لقد رتبنا نجاح دارون وماركس ونيتشه بالترويج لآرائهم، وإن الأثر الهدام للأخلاق الذي تنشئه علومهم في الفكر غير اليهودي واضح لنا بكل تأكيد).

ومن هنا وجد اليهود أن الدولة العثمانية وعلى رأسها (السلطان عبد الحميد) هي العقبة الكأداء أمام فسادهم في الأرض، فحاولوا إغراءه بكل وسيلة، لكنه وقف وقفة المسلم المعتز بدينه، ورفض جميع الإغراءات والتهديدات، فقرر اليهود عن طريق

الحركة الماسونية خلعه سنة 1909م، ثم تدمير الدولة العثمانية، ليتسنى لهم أن يعيثوا في الأرض فساداً. فجاءوا بالتجربة الكمالية على يد (مصطفى كمال أتاتورك)، الذي نقل إلى تركيا من أوروبا العري والإباحية الجنسية، والانسلاخ من دينها. وبقي الغرب حريصاً على المحافظة على الخط الكمالي تماما حتى سنة 1954 إلى أن جاء (عدنان مندريس) وحاول أن يغير فيه شيئاً، فخافت أمريكا على الخط الكمالي فأوحت إلى عملائها في الجيش ليقيموا عليه انقلابا سنة1960م، بتهمة خرق مبادئ أتاتورك...!!

وهكذا بسقوط تركيا آن لليهود وبريطانيا والغرب عموماً أن يمزقوا العالم الإسلامي، ويقسموه بينهم. وأما ذخيرة العالم العربي من شباب وشابات، فقد أفسدتهم بإغراقهم في الجنس، ونشر الصور العارية، والإكثار من دور السينما، وإنشاء المسارح، وتشجيع أدب الجنس الخليع، وإخراج المرأة من البيت، وتشجيع الاختلاط بين الجنسين، في الجامعات خاصة... وإنشاء المعاهد الرياضية للبنات اللواتي يؤخذ على آبائهن صكاً بالتنازل عن بكارة ابنته - التي تفقدها أثناء قفزة رياضية -...!! ثم كلية الرياضة المختلطة، والمسابح المختلطة، والعري الفاضح والشواطئ المستباحة للناظرين، ثم نادي العراة. وكم أضحكني أن أسمع أن هناك نوادي اسمها (صفر في الأخلاق)، وزج المرأة في كل دائرة من دوائر الدولة، حتى البوليس والجيش، أضف إلى هذا نوادي الماسونية والروتاري الليونز، وكلها لافتات تعبث الأصابع اليهودية من خلالها بحياة الناس وأموالهم وأعراضهم وأوطانهم.

ومن هنا كانت الهزائم المتتالية للعرب، عندما تخلوا عن دينهم وأخلاقهم وأعراضهم، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴾[1]، ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾[2].

1) (سورة المجادلة: ٢٠)

2) (سورة الشورى: ٣٠)

الأساس السابع عشر: الحفاظ على النفس البشرية، وعدم الاعتداء عليها [1]

إن الاعتداء على النفس البشرية يعتبر من أفظع التصرفات التي تصدر عن ابن آدم، لما للإنسان من قيمة وكرامة عند الله، ولما لها من آثار وخيمة في حياة الناس. ولذا كانت المحافظة على هذه النفس وإكرامها خلقاً من الأخلاق الإسلامية العظيمة، فدعا إليه الإسلام وحذر من أي تصرف من التصرفات غير المنضبطة التي تودي بهذه النفس إلى إهدارها، والاعتداء على كرامتها الإنسانية.

لقد خلق الله ﷻ آدم بيديه وكرمه على المخلوقات﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[2]، وأسجد له الملائكة وأرسل له الأنبياء والرسل وأنزل الوحي والكتب من أجله. وسخر الله له ما في السماوات وما في الأرض﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[3]، وكل ذلك لكرامة ومكانة هذا المخلوق عند الله ﷻ.

---

1) المراجع:
1- جريمة قتل النفس المسلمة.
2- الدفاع عن أراضي المسلمين أهم فروض الأعيان.
3- كلمات من خط النار الأول (في رسائله لقادة الجهاد الأفغاني).

2) (سورة الإسراء: ٧٠).

3) (سورة الجاثية: ١٣).

ولذا فقد شدد هذا الدين في صيانة هذا الإنسان، وحفظ دمه من أن يهرق بدون حق﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾[1].

والحق إن القاتل قد اعتدى على حق الحياة الذي هو حق للناس أجمعين، فمن قتل واحداً فكأنما قتل الناس جميعاً، ولذا جاء في الصحيحين: (لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تُقْتَلُ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْهَا ، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ أَوَّلًا)[2].

قال الألوسي: (وَفَائِدَةُ التَّشْبِيهِ التَّرْهِيبُ وَالرَّدْعُ عَنْ قَتْلِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ بِتَصْوِيرِهِ بِصُورَةِ قَتْلِ جَمِيعِ النَّاسِ، وَالتَّرْغِيبُ وَالتَّحْضِيضُ عَلَى إِحْيَائِهَا بِتَصْوِيرِهِ بِصُورَةِ إِحْيَاءِ جَمِيعِ النَّاسِ)[3]. أما جزاؤه في الآخرة، فقد قال تعالى:﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[4].

1) (سورة المائدة: ٣٢) .
2) (البخاري، برقم 7321، 103/9).
3) (روح المعاني 118/5)
4) (سورة النساء: ٩٣).

ولقد بلغت جريمة القتل من الفحش والنكارة ما لم تبلغه جريمة أخرى بعد الإشراك بالله، حتى ذهب عدد من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أن القاتل لا تقبل له توبة، وأنه لن يدخل الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط. فقد روي أن رجلاً أتى ابن عباس فناداه بعد أن كف بصره: (يا عبد الله ما ترى في رجل قتل مؤمناً متعمداً، فقال: جزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيما .فقال: أرأيت إن تاب وعمل صالحاً ثم اهتدى، فقال ابن عباس: ثكلته أمه وأنى له التوبة والهدى، والذي نفسي بيده لقد سمعت نبيكم ﷺ يقول: ثكلته أمه قاتل المؤمن متعمداً، جاء يوم القيامة آخذا بيمينه أو بشماله تشخب أوداجه من قبل عرش الرحمن ﷻ يلزم قاتله بشماله وبيده الأخرى رأسه يقول: يا رب سل هذا فيم قتلني، وأيم الذي عبد الله بيده لقد أنزلت هذه الآية فما نسختها من آية حتى قبض نبيكم وما نزل بعدها من برهان)[1].

ونظراً لبشاعة هذه الجريمة وشدة تعلقها بحقوق العباد، فإنَّ ذمة القاتل لا تبرأ إلا بتسليم نفسه لأولياء القتيل، ليروا فيه رأيهم من القصاص أو العفو أو الصلح على الدية، فإن فعل ذلك كان غير مؤاخذ في الآخرة، ولم ينفذ عليه الوعيد الوارد في النصوص.

قال ابن عابدين: (واعلَم أنَّ تَوْبَةُ الْقَاتل لَا تَكُونُ بِالاسْتغْفَارِ وَالنَّدَامَة فَقَطْ ، بَل تَتَوَقَّفُ عَلَى إِرْضَاءِ أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُول ، فَإِنْ كَانَ الْقَتْل عَمْدًا فَلاَ بُدَّ أَنْ يُمَكِّنَهُمْ مِنَ الْقَصَاصِ

1) (أخرجه بنحوه أحمد في مسنده، برقم 2683، 294/1).

منْهُ، فَإِنْ شاءَوا قَتَلُوهُ ، وَإِنْ شاءُوا أَخَذُوا الدِّيَةَ ، وَإِنْ أ شاءَوا عَفَوْا عَنْهُ ، فَإِنْ عَفَوْا عَنْهُ كَفَتْهُ التَّوْبَة)[1].

ولقد بلغت كرامة النفس البشرية على الله ﷻ إلى درجة أنه حرم على الإنسان أن يقتل نفسه التي بين جنبيه، فحرم الانتحار؛ لأن النفس ليست ملكاً لصاحبها، بل هي لله ﷻ، فلا يجوز له أن يتصرف بنفسه إلا حسب مرضاة الله، والمنتحر يستحق الوعيد وعذاب النار، ففي الحديث المتفق عليه: (.. مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ فِي الدُّنْيَا عُذِّبَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[2]، وقال تعالى:﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴾[3].

وقد وردت أحاديث كثيرة تهتز لها النفس البشرية من أعماقها وترتعد لها الفرائص، تحذر من قتل المسلم وتهول من مغبة الإشارة بالسلاح ولو مازحاً نحو أخيه المسلم. ففي الحديث: (مَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ مُؤْمِنٍ وَلَوْ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ ، لَقِيَ اللَّهَ ﷻ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ : آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)[4]، وفي حديث آخر: (لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ)[5]، حتى أَنَّ مجرد الإشارة بالسلاح على المسلم يعد شريكاً في قتله، ففي الحديث: (إِذَا أَشَارَ الْمُسْلِمُ عَلَى أَخِيهِ الْمُسْلِمِ بِالسِّلَاحِ فَهُمَا عَلَى جُرُفِ جَهَنَّمَ فَإِذَا قَتَلَهُ خَرَّا جَمِيعًا فِيهَا)[6]، ومجرد الإشارة بالسلاح على المسلم، يسبب لعنة الملائكة

1) (حاشية ابن عابدين 549/6)
2) (البخاري، برقم 6047، 15/8. ومسلم، برقم 110، 104/1)
3) (سورة النساء: ٢٩).
4) (ابن ماجة، برقم 2620، 874/2)
5) (النسائي، برقم 3987، 82/7).
6) (النسائي، برقم4116، 124/7).

(مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ حَتَّى يَدَعَهُ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ)[1].

وكم سبّبَ التفريط بهذه الأحاديث من المشاكل وأودى بحياة كثير من الأرواح، وكثيراً ما يظن المرء أن سلاحه ليس فيه رصاص، فيشير إلى أخيه ويضغط على الزناد فيقتل أخاه دون قصد، فيندم ولات ساعة مندم. ولذا يجب أخذ الاحتياط الكامل في حمل السلاح، ولا يضعه في متناول الأطفال. ففي الحديث المتفق عليه (إِذَا مَرَّ أَحَدُكُمْ فِي مَسْجِدِنَا أَوْ فِي سُوقِنَا وَمَعَهُ نَبْلٌ فَلْيُمْسِكْ عَلَى نِصَالِهَا أَوْ قَالَ فَلْيَقْبِضْ بِكَفِّهِ أَنْ يُصِيبَ أَحَدًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا شَيْءٌ)[2].

ومن المصائب الكبرى أن يقتل المسلم أخاه المسلم انتصاراً لحزبه أو تنظيمه، أو انتصاراً لقومه أو عشيرته لنعرة جاهلية، أو إرضاء لزعيمه، فيرتكب أكبر الكبائر لرضى زعيمه ويقع في غضب رب العباد.

ولقد بينت النصوص الشرعية أن المسلم ثقيل في ميزان الله ﷻ، وحرمة دمه عظيمة، فأول شيء يقضى يوم القيامة في الدماء: (أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ)[3]، وفي الحديث المتفق عليه (إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ قَالَ إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ)[4]، وهذا دليل على أن المرء مؤاخذ بنيته إذا بلغت حد العزم، وأن العزم على المعصية إثم.

1) (مسلم، برقم 2616، 2020/4).
2) (البخاري، برقم 7075، 49/9)
3) (البخاري، برقم 6533، 111/8)،
4) (البخاري، برقم31، 15/1).

ومعنى حريصاً: أي جازماً مصمماً عليه، فلم يقدر عليه، فكان كالقاتل؛ لأنه في الباطن قاتل، فكل منهما ظالم معتد. فالقاتل يعذب على القتال والقتل، والمقتول يعذب على القتال فقط.

وقد عظم رسول الله ﷺ من حرمة انتهاك دم المسلم، ولم يفرق بين الذي ينتهك حرمة المسجد الحرام وبين الذي ينتهك حرمة المسلم، فقد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ قال في خطبته في منى في حجة الوداع (...فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا...)[1].

وقد نص الفقهاء على وجوب دفع الصائل على النفس، ولو أدى إلى قتل الصائل – ولو كان مسلماً -، ففي الصحيح (مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ)[2]، (مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ ، أو دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ)[3]، قال الجصاص: بعد هذا الحديث (لا نعلم خلافاً أن رجلاً لو شهر سيفه على رجل ليقتله بغير حق أن على المسلمين قتله)[4].

1) (البخاري، برقم1،24/67).
2) (البخاري، برقم 2480، 136/3)،
3) (أبو داود، برقم 4772، 246/4).
4) (جامع الأحكام 150/8)

الأساس الثامن عشر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر [1]

ولا شك أن هذا الأساس هو الأساس الذي يضمن بقاء الدين والقيم والأخلاق الصالحة، التي يقوم عليها المجتمع المسلم، وبدون هذا الأساس تضمحل القيم والأخلاق في المجتمع الإسلامي شيئاً فشيئا، ويوماً بعد يوم، حتى تتلاشى، ويفقد المجتمع الإسلامي أهم صفاته وميزاته. فبقاء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقاء لجميع القيم الأخلاقية التي يقوم عليه المجتمع المسلم، وبمقدار نشاط الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، بمقدار ما تنتشر وتعم الأخلاق والقيم والمبادئ، التي هي عماد المجتمع المسلم، بل هي قوام المجتمعات الإنسانية برمتها.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[2]، عن عكرمة أن ابن عباس قال له : أعياني أن أعلم ما فعل الله بمن أمسك عن الوعظ من أصحاب السبت، فقلت له : أنا أعرفك ذلك، اقرأ الآية الثانية، (أنجينا الذين ينهون عن السوء) قال: فقال لي: أصبت، وكساني

---

1) المراجع:
1- حكم العمل في جماعة.
2- في ظلال سورة التوبة.
3- سعادة البشرية.
4- موسوعة الذخائر العظام ج610/1.

2) (سورة الأعراف: ١٦٤-١٦٦)

حلة . قال الجصاص: فاستدل ابن عباس بذلك على أن الله أهلك من عمل السوء، ومن لم ينه عنه، فجعل الممسكين عن إنكار المنكر بمنزلة فاعليه من العذاب.

حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

أجمع السلف والخلف أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة يجب أن يقوم بها قسم من الأمة الإسلامية -في حالة وجود الدولة الإسلامية والأمة الإسلامية التي تعيش في إطار المجتمع المسلم لشرع الله ومنهاجه- وإلا كانت الأمة الإسلامية كلها آثمة. هذا في حالة قيام المجتمع المسلم، أما عند غيابه فيصبح الأمر بالمعروف فرض عين على كل مسلم ومسلمة.

قال الجصاص: (أَكَّدَ اللَّهُ تَعَالَى فَرْضَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ ، وَبَيَّنَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَخْبَارٍ مُتَوَاتِرَةٍ عَنْهُ فِيهِ ، وَأَجْمَعَ السَّلَفُ وَفُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ عَلَى وُجُوبِهِ)[1]. وقال ابن العربي: (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل في الدين، وعمدة من عمد المسلمين وخلافة رب العالمين، والمقصود الأكبر من فائدة بعث الرسل، وهو فرض على جميع الناس، مثنى وفرادى، بشرط القدرة عليه)[2]، والقدرة المشترطة هنا: في حالة الأمر بالمعروف، وتغيير المنكر باليد أو باللسان، ولكن هذا لا يعفي إنكار المنكر بالقلب مع المقاطعة وعدم الخلطة) مع أصحاب المعاصي والذنوب . قال ابن عطية: (والإجماع منعقد على أن النهي عن المنكر فرض لمن أطاقه، وأمن الضرر على نفسه، وعلى المسلمين، فإن خاف فينكر بقلبه ويهجر ذا المنكر ولا يخالطه).

---

1) (أحكام القرآن، 154/4)

2) (عارضة الأحوذي، 13/9)

ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يوجب لعنة الله:

يقول الله ﷻ: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾[1]، وهاتان الآيتان فيمن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلسانه وقلبه، أو أنكر بلسانه مع المخالطة والمعايشة والمؤاكلة، فلقد استحقوا اللعنة بالعصيان والاعتداء، وهو ترك النهي عن المنكر، وهذا الذي فسره قوله ﷺ فيما رواه عنه ابن مسعود قال : قال ﷺ (لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الْمَعَاصِي نَهَتْهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ فَلَمْ يَنْتَهُوا فَجَالَسُوهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ قَالَ يَزِيدُ أَحْسِبُهُ قَالَ وَأَسْوَاقِهِمْ وَوَاكَلُوهُمْ وَشَارَبُوهُمْ فَضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ فَقَالَ لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى تَأْطُرُوهُمْ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا)[2]، وقد رأينا في قصة أصحاب السبت أن الله مسخ الساكتين عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الذين اعتدوا في السبت.

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود ﷺ (مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِه حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِه وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ

1) (سورة المائدة: ٧٨ – ٧٩).

2) (مسند الإمام أحمد، برقم 3713، 391/1)

مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ)[1]، وإذن فالأمر جد، فلا بد من الجهاد باليد أو باللسان أو بالقلب، والجهاد بالقلب عملية إيجابية، لها أثرها في واقع الحياة بالمقاطعة والإعراض وعدم التعاون على المنكر، وهذه أدنى مراتب الجهاد، ولا يبقى بعدها من الإيمان حبة خردل.

وأقل درجات الإيمان، الإنكار القلبي، الذي إن اتفقت عليه الأمة لا يظهر فيها فساد، ولا يطغى فيها غشوم، ولا يعلو فيها متجبر، وهذا المسمى بالعصيان المدني. وفي صحيح مسلم عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنه قال: (إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ)[2]، فلا بد من الكراهية القلبية والإنكار بأي وسيلة من وسائل الاحتجاج، وإن ترك الإنكار القلبي، يخرج صاحبه من دائرة الإيمان.

فهم السلف لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قال ابن المبارك: لما بلغ أبا حنيفة قتل إبراهيم الصائغ بكى حتى ظننا أنه سيموت، فخلوت به فقال: كان والله رجلاً عاقلاً، ولقد كنت أخاف عليه هذا الأمر، قلت: وكيف كان سببه؟ قال: كان يقدم ويسألني، وكان شديد البذل لنفسه في طاعة الله، وكان شديد الورع، وكنت ربما قدمت الشيء فيسألني عنه ولا يرضاه ولا يذوقه، وربما رضيه فأكله، فسألني عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى أن اتفقنا أنه فريضة من الله تعالى، فقال لي: مد يدك حتى أبايعك، فأظلمت الدنيا بيني وبينه، فقلت ولم؟ قال

1) (مسلم، برقم 50، 69/1).
2) (مسلم، برقم1854، 1481/3).

دعاني إلى الحق من حقوق الله فامتنعت عليه وقلت له: إن قام به رجل وحده قتل، ولم يصلح للناس أمر، ولكن إن وجد عليه أعواناً صالحين،... وكنت أقول له: هذا أمر لا يصلح بواحد، ما أطاقته الأنبياء حتى عقدت عليه من السماء، وهذه فريضة ليست كسائر الفرائض؛ لأن سائر الفرائض يقوم بها الرجل وحده، وهذا متى أمر به الرجل وحده أشاط بدمه، وعرض نفسه للقتل، فأخاف عليه أن يعين على قتل نفسه، وإذا قتل الرجل لم يجترئ غيره أن يعرض نفسه، ولكنه ينتظر، وقد قالت الملائكة ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[1]، ثم خرج إلى (مرو) حيث كان أبو مسلم فكلمه بكلام غليظ فأخذه، فاجتمع عليه فقهاء أهل خراسان وعبادهم حتى أطلقوه، ثم عاوده فزجره، ثم عاوده، ثم قال: ما أجد شيئاً أقوم به لله تعالى أفضل من جهادك، ولأجاهدنك بلساني، ليس لي قوة بيدي، ولكن أراني الله وأنا أبغضك فيه فقتله.

هذا قول أبي حنيفة وهو يؤكد على ضرورة العمل الجماعي من أجل القيام بفريضة الأمر بالمعروف. أرأيت قوله: (ولكن إن وجد عليه أعواناً صالحين ورجلاً يرأس عليهم مأموناً على دينه فلا يحول) أي: يجب العمل معهم، فلا بد من قيادة صالحة مأمونة على دين الله وجند صالحين صادقين، (هذا أمر لا يصلح بواحد، ما أطاقته الأنبياء، حتى عقدت عليه من السماء، وهذه فريضة ليست كسائر الفرائض، لأن سائر الفرائض يقوم بها الرجل وحده). يقول ابن تيمية في (مجموع الفتاوى، 127/28): (والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكون تارة بالقلب، وتارة باللسان، وتارة باليد، فأما القلب فيجب

1) (سورة البقرة: ٣٠)

بكل حال، إذ لا ضرر في فعله، ومن لم يفعله فليس بمؤمن، كما قال النبي ﷺ (وذلك أدنى أو أضعف الإيمان) وقال: ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل، وقيل لابن مسعود: من ميت الأحياء؟ فقال (الذي لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً)، وأصل هذا أن تكون محبة الإنسان للمعروف وبغضه للمنكر، وإرادته لهذا، وكراهته لهذا موافقة لحب الله وبغضه وإرادته وكراهته الشرعيين، وأن يكون فعله للمحبوب ودفعه للمكروه بحسب قوته وقدرته، فإن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وقد قال: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾[1]، فأما حب القلب وبغضه وإرادته وكراهيته، فينبغي أن تكون كاملة جازمة، لا يوجب نقص ذلك إلا نقص الإيمان، وأما فعل البدن فهو بحسب قدرته، ومتى كانت إرادة القلب كاملة وكراهته كاملة تامة، وفعل العبد معها بحسب قدرته، فإنه يعطى ثواب الفاعل الكامل.

وقد فهم الصحابة رضوان الله عليهم قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنه لا بد منه ولا يسع المسلم تركه، فقد جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: إني أعمل بأعمال الخير كلها إلا خصلتين، فقال: ما هما؟ قال: لا آمر بالمعروف ولا أنهى عن المنكر، فقال عمر: (لقد طمست سهمين من سهام الإسلام، إن شاء غفر لك وإن شاء عذبك).

وقال الضحاك: (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضتان من فرائض الله تعالى، كتبهما الله عز وجل). قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ

1) (سورة التغابن: ١٦)،

وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾[1]، فريضة على كل مسلم، وتقصيره في حق نفسه لا يسوغ له تقصيره في هذه الفريضة، فأي منطق أن يقال للمصلي الذي لا تلتزم زوجته اللباس الشرعي: اترك صلاتك حتى تلتزم زوجتك اللباس الشرعي ؟!! قال ابن العربي (في أحكامه، 1/ 292): إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض يقوم به المسلم، وإن لم يكن عدلاً، خلافاً للمبتدعة الذين يشترطون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (العدالة)، وكل أحد عليه فرض في نفسه أن يطيع وعليه فرض في دينه أن ينبه غيره على ما يجهله من طاعة أو معصية.

وقال حذاق أهل العلم (تفسير القرطبي 254/6، وتفسير ابن الجوزي – زاد المسير 242/2): (ليس من شرط الناهي أن يكون سليماً عن معصية، بل ينهى العصاة بعضهم بعضاً، وقال بعض الأصوليين: فرض على الذين يتعاطون الكؤوس أن ينهى بعضهم بعضاً، واستدلوا بالآية: ﴿ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُ ﴾[2]، يقتضي اشتراكهم في الفعل، وذمهم على ترك التناهي. وقال الجصاص (في أحكام القرآن 220/2): فرض النبي ﷺ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مجرى سائر الفروض في لزوم القيام به، مع التقصير في بعض الواجبات، ولم يدفع أحد من علماء الأمة وفقهائها سلفهم وخلفهم وجوب ذلك...).

1) (سورة النحل: ١٢٥).
2) (سورة المائدة: ٧٩)،

وهناك فئة من الناس تحتج بالآية:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾[1]، وقد خشي أبو بكر على الناس أن يفهموا أنهم ليس عليهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا صلحوا، فقال: (يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾[2]، وإنا سمعنا رسول الله ﷺ، يقول: (إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ لَا يُغَيِّرُونَهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللَّهُ بِعِقَابِهِ)[3].

وفي الترمذي عن أبي أمية الشعباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني، قال: (قُلْتُ كَيْفَ تَصْنَعُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ؟ قَالَ: أَيَّةُ آيَةٍ؟ قُلْتُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾[4]، قَالَ: سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا، سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: بَلْ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ وَرَأَيْتَ أَمْرًا لَا يَدَانِ لَكَ بِهِ فَعَلَيْكَ خُوَيْصَةَ نَفْسِكَ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ الصَّبْرُ فِيهِنَّ عَلَى مِثْلِ قَبْضٍ عَلَى الْجَمْرِ لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ بِمِثْلِ عَمَلِهِ)[5]، وفي رواية: (قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَجْرُ

1) (سورة المائدة: ١٠٥)
2) (سورة المائدة: ١٠٥)
3) (ابن ماجة، برقم4005، 1327/2).
4) (سورة المائدة: ١٠٥)
5) (ابن ماجة، برقم 4014، 1330/2)

خَمْسِينَ مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ قَالَ: بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ)[1]، يقول ابن العربي: (هذه الآية من أصول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي هو أصل الدين وخلافة المسلمين)[2].

قال الجصاص: (وثبت بما قدمنا ذكره من القرآن والآثار الواردة عن النبي ﷺ وجوب فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبينا أنه فرض على الكفاية، وجب أن لا يختلف في لزوم فرضه البر والفاجر؛ لأن ترك الإنسان لبعض الفروض لا يسقط عنه فروضاً غيره، ألا ترى أن تركه للصلاة لا يسقط عنه فرض الصوم وسائر العبادات، فكذلك من لم يفعل سائر المعروف، ولم ينته عن سائر المناكير، فإن فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غير ساقط عنه)[3]. وقول الجصاص: (فرض على الكفاية)، هذا في زمنه حيث يظلهم شرع الله، ويقوم فيهم خليفة بحكم الله، مع بعض المخالفات الشخصية من الأمراء، أما اليوم فقد ضاع دين الله، وانتهكت حرماته، وتعديت حدوده، وأقصي الدين عن منصة الحكم، وحلت القوانين الوضعية مكان شريعة الله، فأصبح العمل لرفع راية لا إله إلا الله فوق المجتمع فريضة عين على كل مسلم ومسلمة.

نماذج أخرى من فتاوى علماء السلف في هذا السياق:

إن المؤمن ليقف واجماً إزاء فتاوى الفقهاء التي تضع هذا الركن في مكانه الصحيح من الإسلام، وإن القلب ليرتاح إلى هذه الفتاوى؛ لأنه إن ضاع هذا الركن فقد ضاع الإسلام كله؛ لأنه الحارس الأمين لحصن هذا الدين، وعندما يغيب الحرس تدك الثغور، ويهلك العباد، وتضيع البلاد، ويعم الفساد في الأرض.

---

1) (الترغيب والترهيب، برقم 4793، 58/4)

2) (أحكام القرآن 2/ 702)

3) (أحكام الجصاص 220/2)

وإنني أغمض عيني ليتراءى لي شخوص الذين حملوا هذا الدين في حقبات التاريخ المتطاولة، ويرى رخص الحياة لديهم، ترى من بعيد جميع الأنبياء، وإبراهيم عليه السلام، وكذلك الأنبياء من بعده عليهم الصلاة والسلام وأصحاب الأخدود، وسحرة فرعون وأصحاب الرسول محمد ﷺ من وراء قائدهم، ثم مروراً بأحمد بن حنبل، وابن تيمية، وسيد قطب، ومروان حديد وعبد العزيز البدري.

لقد رتب الرسول ﷺ مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالحديث الذي رواه مسلم (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ)[1].

إن انتهاك الحرمات، وتعدي حدود الله أمر يهدد الحياة الاجتماعية، ويقطع حبل الأمن فيها، ومن هنا فإن لم تعالج بدواء ناجع فإن الأمور تتميع وتضيع القيم والأخلاق، ويسود الطغاة، ولقد صور رسول الله ﷺ المجتمع تصويراً دقيقاً، بحيث لو سمح لواحد أن يعيث فيه فساداً، فإن المجتمع كله يتعرض للانهيار والدمار.

ففي البخاري عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: (مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنْ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا)[2].

1) (مسلم، برقم 49، 69/1).

2) (البخاري، برقم 2493، 139/3).

ومن الآيات الكريمة في هذا السياق قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًاۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1].

وهذه الآية نزلت في أهل الكتاب الذين كتموا صفة النبي ﷺ في التوراة، وحرفوها حتى يصدوا الناس عن دين الله، إلا أن القاعدة الأصولية: (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)، فلفظ الآية عام في كل من كتم دين الله وكتابه وشرعته، وقد قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كلمة الفصل في مثل هذه الآيات، وتعتبر القاعدة الأساسية في مثل هذا الموضوع: (كل ما ذم الله أهل الكتاب عليه فالمسلمون محذرون من مثله). ويقول الفخر الرازي: (دلت الآية على تحريم الكتمان لكل علم في باب الدين يجب إظهاره)، ويقول القرطبي: (هذه الآية وإن كانت في الأحبار، فإنها تتناول من المسلمين من كتم الحق مختاراً لذلك بسبب دنيا يصيبها). ومن هنا فعلى الذين يقعدون عن العمل لدين الله ولا يحركون ساكناً، ولا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن منكر أن يعلموا مصيرهم الذي ينتظرهم عند خالقهم الذي لا يكلمهم ولا يزكيهم وأعد لهم عذابا أليما.

حكي أن الحجاج أرسل إلى الحسن فقال له: ما الذي بلغني عنك؟ فقال: ما كل الذي بلغك عني قلته ولا كل ما قتله بلغك، فقال: أنت الذي قلت: إن النفاق كان مقموعاً، فأصبح قد تعمم وتقلد سيفاً، فقال: نعم، فقال: وما الذي حملك على هذا؟ ونحن نكرهه، قال: لأن الله أخذ ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه، وعلى هذا فهذه الآية وما قبلها موجبة لإظهار علوم الدين وتبيينه للناس، سواء من جهة

1) (سورة البقرة:١٧٤).

المدلول، وما يستنبط من النصوص من أحكام، ولا تقبل توبة كاتم العلم إلا بالتبيين، والآية السابقة بينت أن توبة كاتم العلم تقبل بشرط واحد: إذا بين ما علمه الله إياه من الهدى، ولفظ الهدى شامل لكل العقيدة والشريعة، سواء جاءت في القرآن أو السنة.

مفهوم العزلة عن المجتمع:

إن الخروج من المجتمع الجاهلي والفرار منه أمر أسهل على الداعية من البقاء بين عتاة الكفر الذين قدت قلوبهم من صخر، لكن على الداعية -وهو يخوض معركته مع الجاهلية- أن يستصحب في أعماقه معرفة عظمة الله وقدرته، ويشعر تجاه الناس الذين يؤذونه بالشفقة والرحمة، وما أصدقه من تعبير، حين قال النبي ﷺ وهو مشفق على قومه: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)[1].

وأما العزلة فإنما تكون في المجتمع الجاهلي عزلة شعورية فقط، ولا يمكن أن تتم العزلة العملية بادئ ذي بدء. وأما العزلة العملية فإنها لا تتم إلا بعد قيام المجتمع المسلم الذي تهيمن عليه شريعة الله، وينفذ فيه حكمه وسلطانه، وهنا تكون المفاصلة العملية، ولو فكرت الدعوة في مراحلها الأولى أن تعتزل المجتمع الجاهلي، وتعيش في الصحاري والكهوف، فإن هذا يؤدي إلى تجميد الدعوة، وبعدها عن الناس الذين يمثلون المادة الخام للدعوة الإسلامية، ولهذا فإن رسول الله ﷺ بقي في مكة، ولم يسكن في كهف من الكهوف في جبال مكة، ولم يترك مكة لطواغيت الكفر، بل بقي يبلغ الدعوة، ويصلي صلاته في فناء الكعبة، التي يحيط بها وبداخلها (360) صنماً.

1) (البخاري، برقم 3477، 175/4).

دعائم الداعية:

والداعية المسلم -وهو يدعو إلى الله ﷻ، ويحاول علاج الأمراض الاجتماعية والأخلاقية في المجتمع المسلم-، لا بد له من دعائم ثلاث:

(1- العلم، 2- الرفق، 3- الصبر).

وسنحاول إلقاء الضوء على هذه الدعائم الثلاث.

أولاً: أما العلم فهو ضروري للداعية، لأنه ينقل دين الله، فلا يجوز له أن ينقل كلمة ما لم يتأكد من صحتها﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[1]؛ ولأن العابد الجاهل كالعالم الفاجر سواء بسواء، كلاهما ضرره أكثر من نفعه، وقد نهى رب العزة عن اتباع الظن، وذم الظن في مواطن كثيرة من كتابه العزيز﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾[2]، وفي صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ)[3].

وقال عمر بن عبد العزيز: (من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح).

1) (سورة الإسراء: ٣٦)

2) (سورة يونس: ٣٦).

3) (البخاري، برقم 1291، 80/2).

وهناك كثير من أقوال السلف في هذا السياق، مثل قولهم: العلم إمام العمل، والعمل تابعه، ولأن الله لا يقبل عملاً إلا بشرطين، أن يكون خالصاً، وأن يكون صواباً. فالخالص: أن يكون صادقاً لوجه الله لا يخالطه رياء ولا شرك، وصواباً: أن يكون موافقاً للسنة ولدين الله عموماً. وعن الحسن البصري قال: لا يصلح قول وعمل إلا بنية، ولا يصلح قول وعمل إلا بموافقة السنة.

ثانياً: أما الرفق فقد وردت أحاديث كثيرة صحيحة فيه، ففي صحيح مسلم عن النبي ﷺ (مَنْ يُحْرَمْ الرِّفْقَ يُحْرَمْ الْخَيْرَ)[1]، وروى مسلم أيضاً عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مرفوعاً (إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ)[2] ...يا عائشة: (إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ)[3]، وهذا هو مفهوم الآية ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾[4]، واعلم أن قلوب البشر كالزجاج رقيقة، وقد تكسرها الكلمة الفظة الغليظة، فتنفر من الداعية، ولا تعود إلى الانجبار والالتئام، وكم من كلمة رقيقة دخلت إلى القلوب فهزتها، وحركتها وأيقظتها من سباتها. وصدق الله ﷻ ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[5].

---

1) (مسلم، برقم 2592، 2003/4)

2) (مسلم، برقم 2594، 2004/4)

3) (مسلم، برقم 2593، 2003/4)

4) (سورة النحل: ١٢٥).

5) (سورة آل عمران: ١٥٩) .

ثالثاً: وأما الداعم الثالث، وهو الصبر؛ فلأن الداعية المعالج لأمراض المجتمع العقائدية والأخلاقية، لا بد أن يتعرض للأذى وهو يقابل الناس بما يخالف معتقداتهم وآراءهم وأخلاقهم التي اعتادوا عليها، وهو ينقص مبادئهم، ويسفه أحلامهم. وحين نقرأ نصيحة لقمان لابنه وهو يعظه، نلمس حقيقة ثابتة، ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾[1]، وهذه الحقيقة التي نلمسها من وعظ لقمان لابنه، وهي أن الإيذاء ملازم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهو نفس الأمر الرباني للرسول ﷺ ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[2]، ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ﴾[3].

وقد جاء في الأثر عن بعض السلف، ورووه مرفوعا – كما ذكره القاضي أبي يعلى في المعتمد- (لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهاً فيما يأمر به، فقيهاً فيما ينهى عنه، رفيقاً فيما يأمر به، رفيقاً فيما ينهى عنه، حليماً فيما يأمر به حليماً فيما ينهى عنه)[4].

1) (سورة لقمان:١٧)
2) (سورة الأحقاف: ٣٥)
3) (سورة المدثر:٧)
4) (مجموع الفتاوى لابن تيمية 137/28).

وما من مصلح لفساد المجتمع - حين يفسد دين الناس، وتفسد أخلاقهم، وحين يتخلى المجتمع عن قيمه الفاضلة – إلا بدا غريباً في مجتمعه، وتعرض للأذى والتهم الظالمة.

وصدق الرسول ﷺ: (بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ)[1]، وعند الترمذي (إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيبًا وَيَرْجِعُ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي)[2].

1) (ابن ماجه، برقم 3986، 1319/2)

2) (الترمذي، برقم 2630، 314/4).

هَذَا الْكِتَابْ

- نفحة من نفحات الشيخ عبد الله عزام وثمراته اليانعة، وما أكثرها من نفحات..!!
- خلاصة ما وصل إليه الشهيد، بعد تجربة مضنية خاضها بنفسه وروحه، في ميدان التربية والإعداد الأخلاقي للنفس المسلمة.
- أخلاقيات ترتكز على أصول عقائدية ثابتة راسخة، لا تتلاعب فيها الأهواء والمصالح الذاتية.
- الأسس الأخلاقية التي لا يمكن لمسلم أن يتمثل الإسلام الحقيقي في واقع الحياة بدونها.
- الأسس الأخلاقية التي تمثل ركائز المجتمع الإسلامي الراشد المنشود.
- هذا الكتاب شهادة بأن المسلم – دون هذه الأسس الأخلاقية – لا هو مسلم يمثل إسلامه الراقي الحضاري، ولا هو إنسان يحافظ على بقايا بشريته.

مُعد الكتاب

د. أحمد سعيد صالح عزام

عضو هيئة التدريس في

جامعة القدس المفتوحة – جنين

10-12-2020م

فهرس المحتويات

المحتويات 1
المقدمة..... 2

الأصل الأول: البناء العقدي من النبع الصافي كأصل للمنظومة الأخلاقية

العقيدة 8
ضرورة صفاء العقيدة ونقائها من آراء البشر..... 10
(ثبات التصور العقائدي) ودوره في أخلاق الأمم والشعوب 12
أثر انحراف (التصور العقائدي) في السلوك والأخلاق 16
السعادة في ظل المنهج الرباني وأثرها على الجانب الأخلاقي في الإنسان..... 20

الأصل الثاني: التوجيهات الإسلامية في الجانب الخلقي والأسس التي ترتكز على البناء العقدي

الأساس الأول: الأخوة في الله وحفظ غيبتهم.. أو (إخوان الظواهر والسرائر) 25
الأساس الثاني: حسن الظن بالمسلمين والصالحين 30
الأساس الثالث: عدم الغيبة والنميمة والسخرية بالأفراد والجماعات 36
الأساس الرابع: عدم التنابز بالألقاب، وعدم اللمز والهمز والغمز 39
الأساس الخامس: عدم العجب والكبر والغرور 49

الأساس السادس: الصدق مع الله في الأقوال والأفعال، أو (استواء الظاهر مع السرائر) 52

الأساس السابع:فهم القانون الرباني –قانون الجزاء- (الجزاء من جنس العمل) 64

الأساس الثامن: الحذر من قواصم الظهر الثلاث 71

الأساس التاسع: وزن الناس بالموازين الربانية 80

الأساس العاشر: الصبر على مرارة الطريق 90

الأساس الحادي عشر: الثقة بوعد الله والتوكل عليه 113

الأساس الثاني عشر: خطورة العلم بلا عمل والقول بلا فعل 121

الأساس الثالث عشر: (القاعدة الصلبة) وخطر العمل بلا علم 132

الأساس الرابع عشر: الزهد في الدنيا، والتضحية في سبيل الدعوة 147

الأساس الخامس عشر: نشر الخير، وتجنب الشائعات، وبث الأمل في قلوب المسلمين 166

الأساس السادس عشر: حفظ الأعراض 176

الأساس السابع عشر: الحفاظ على النفس البشرية، وعدم الاعتداء عليها ..181

الأساس الثامن عشر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر 187

هذا الكتاب 203

فهرس المحتويات 204

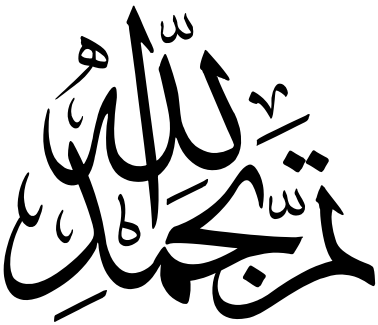

تم بحمد الله

جميع الحقوق محفوظة

للتواصل مع الكاتب والمؤلف

dr.ahmazzam@gmail.com